روافد

الإصدار: 38

# شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ



د. محمد عبد الحميد سالم

إسهام

يهدى ولا يباع

روافد

# شعر أبي طالب
# في نصرة النبي ﷺ

د. محمد عبد الحميد سالم

الإصدار: 38 ( فبراير 2011م / ربيع الأول 1432هـ )

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

## الدكتور/ محمد عبد الحميد سالم

من مواليد مصر، حاصل على الدكتوراه في الآداب، يعمل أستاذا للأدب القديم ونقده بكلية الألسن، جامعة عين شمس.

له إنتاج علمي غزير في الدراسات النقدية للأدب العربي القديم، من مؤلفاته: «قضية الوضع والانتحال بين القدماء والمحدثين: دراسة نقدية»، و«الأدب في العصر العثماني بين مُنصفيه والطاغيين فيه»، و«طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحيّ وأثرها في الدراسات النقدية الحديثة»، وغيرها...

**نهـر متعـدد ... متجـدد**

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.


وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

فبراير 2011م / ربيع الأول 1432 هـ



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2011 / 008

ردمك: 978-99966-50-05-5

# فهرس المحتويات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

قد تبدو فكرة كتاب « شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ » طريفة إلى حد بعيد، فمن المؤكد ، تاريخيا، أن عم الرسول عليه السلام أبا طالب لم يؤمن بدعوته، وبقي على شركه إلى أن وافته المنية، ومع ذلك، فإنه كان يتخذ موقف المنافح عن شخص الرسول الكريم، يرد عنه كيد المشركين ، ويصد مؤامراتهم الهادفة إلى النيل منه .

ولعل هذا ما يفسر جانبا من الحزن الذي ألم بمحمد ﷺ حين وفاة أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، حتى سمي ذلك العالم بعام الحزن.

ولم يقتصر أبو طالب على نصرة رسول الله عليه السلام بمواقفه العملية، بل سخر شعره لهذه المهمة النبيلة، وقد سعى الباحث الدكتور محمد سالم إلى أن يقدم عرضا تحليليا لتك الأشعار معتمدا الإطار التاريخي للأحداث التي مرت بدعوة الرسول في مكة وهجرة الصحابة إلى الحبشة واجتماع أهل مكة على محاصرتهم وتجويعهم .

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الإصدار إلى جمهور القراء ، مذكرة بأن الشعر الجاهلي وجزءاً من الشعر الذي قيل في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية عرف العديد من مناهج نقده بغية الوقوف على الصحيح والمنحول منه، وتلك المناهج قادرة على أن تفحص مختلف القصائد المنسوبة إلى أبي طالب وتختبرها وفق آليات البحث العلمي.

ومهما كانت نتائج ذلك الفحص والاختبار، فإن تلك القصائد تقدم معاني جليلة، وتكشف عن العناية الإلهية التي شملت الرسول الكريم عليه السلام وهو ينشر دعوة الإسلام ، ويدعو إلى رسالة التوحيد.

والأمل معقود على أن يحقق الكتاب الغاية من تأليفه ونشره.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

# مقدمة

**بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.**

**وبعد،،**

فكل شيء مرهون بملابساته وأسبابه؛«قد جعلَ اللّهُ لكلِّ شيءٍ قدْرا». ومن الأسباب التي مهّدت لهذا البحث، ودفعت إليه؛ وأعانت ـ بعد اللّه ـ عليه؛ أمران:ـ

أولهما : أن بحوثي الأخيرةَ التي أعان اللّه على إنجازها ، وهي:

١ـ (السَّفّاحُ التّغلبُّي ـ ٦٩ ق.هـ /٥٥٥م ـ: حياته وشعره)

٢ـ (عُبَيْدُ بنُ الحُرِّ: الشاعر السياسيُّ الثّائر).

٣ـ (الحربُ والمكيدةُ في شعر داهية العرب عمرو بن العاص: دراسة موضوعية فنية).

قد هيّأت لي الارتباطَ الوثيقَ بالمصادر التاريخيّة -في تلك الحِقبة-، ومُعايشَتَها، وتعمُّقَ أحداثِها. وكان من أهم ما جذبني فيها. وبخاصّة بعد أن أوصى عبد المطلب بن هاشم؛ جدُّ الرسولﷺ ابنه أبا طالب بسقاية زمزم، وحِفْظِ رسولِ اللّه ﷺ وحياطتِه من بعده، دون إخوته مع كثرتهم، «وقال له ـ كما يروي اليعقوبيُّ في تاريخه: ١٣/٢ ـ قد خلفتُ في أيديكم الشرفَ العظيمَ الذي تطئون به رقاب العرب...»؛ أقول: أهم ما جذبني هو موقفُ أبي طالب من الرسول ﷺ وحدَبُه عليه، واصطحابُه صغيرًا معه في رحلته إلى الشام، وما كان من أمر (بحيرا) الرّاهب الذي بشّر أبا طالب بنبّوته، وأوصاه بحفظه ورعايته، وحذّره من غدْر اليهود به؛ وكذلك ما كان من مطمع أحْبار اليهود: زَريرٍ، وتمّام، ودَرِيس، فيه، لولا أن قيّض اللّه له النجاة منهم على يد هذا الراهب؛ وأخَيرًا صدى هذه الرحلةِ بأحداثها وخوارقها في شعر أبي طالب؛ الأمر الذي دفعني منذ الخطوات الأولى أن أسجل في بطاقات جانبّية كثيرًا من هذه المواقف والأحداث، مع

توثيقها بمصادرها ووضعها في مظروفٍ كبيرٍ خاصٍّ بها، «لعلّ اللهَ يُحْدِثُ بعد ذلِكَ أمْرًا».

ومما زادني إعجابًا، وملأ نفسي سرورًا وانبهارًا؛ موقفُ أبي طالب من الرسول - ﷺ - منذ بَعْثته، واهتمامه بدعوته، غِبَّ علمه بها دون غيره من قريش؛ عندما سأل ابنه عليًّا، وقد رآه يُصلّي - مُسْتَخْفيًا - وراء الرسول - ﷺ - كما يَروي ابنُ إسحاق - (السيرة النبويّة :١/٢٦٣): «أيْ بُنَيَّ؛ ما هذا الدينُ الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت؛ آمنتُ بالله وبرسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصلّيْتُ معه، واتّبعتُه،... فقال له: أما إنه لم يَدْعُك إلاّ إلى خير فالزمه».

وأشدّ ما انبهرت به وأقـواه؛ موقفُ أبـي طالب من قريش الذين نسيَ صفاءهم، وألِفَ جفاءهم، بعد أن جهر الرسول - ﷺ - بدعوته، وكشفت قريش عن عداوته، وتغيّت قتله؛ بل سعت إليه، وأبرمت أمرها عليه؛ حينما تقطّعت بها الأسباب، وأعْيَتْها الحِيلُ لصرفه عن دعوته؛ بيْد أن الله قد ردّ كيْدها في نحرها؛ «فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين».

هذا، وفي خلال تتبعي هذه المسيرةِ كنتُ أُلاحظ أن أباطالب، الذي ناصَ بالأمر، واضطلع به - كما أضاءت لي المصادر - لم يُشْهر سيفَه فحسب في وجه قريش؛ بل اتّخذ من شعره أيضًا قوسًا ينزع عنه ويقذفهم - (وجرحُ اللسانِ كجرح اليد)، بل هو أشدُّ بأسًا وأكثرُ تنكيلاً - بكل قارِصَة من القول، ويرميهم بما يُرْديهم من الحديث؛ حتى أرهقهم صَعُودًا، وجشّمهم كئودًا؛ وبخاصة حين حاصرته قريشٌ في شِعْب أبي طالب؛ ورَقشت صحيفتها الجائرة الغادرة لمقاطعته. «وقطعوا عنهم - كما يقول ابن سعد في طبقاته: ٢٠٩/١ - الميرَةَ والمادّةَ، فكانوا لا يخرجون إلا من موْسم إلى موْسم، حتى بلغهم الجَهْدُ، وسُمع أصواتُ صِبيانِهم من وراء الشِّعب...» الذي أقاموا فيه ثلاث سنين؛ بداية من ليلة هلال المحرم سنة سبعٍ من البعثة المحمدّية.

وأما ثاني الأسباب التي مهدت لهذا البحث، فهي: رسالة الدكتوراة التي أنجزها الباحث الجادّ الشاعر الناقد الصحفيّ:د/عبد الناصر عيسوي، تحت إشرافي، بعنوان:

(شعر بني هاشم في الجاهلية وصدر الإسلام: جمع وتحقيق ودراسة)

وقد كان من خّطته في بحثه أن يشير إلى مَنْ له ديوان من بني هاشم، دون أن يجمع شعره - وإن كان قد استدرك على ديوان عبد المطلب بن هاشم الذي صنعه د/عبد الحميد المعيني ، وبعض الدواوين وغيره - وكان أبو طالب من المشار إليهم، دون استدْراك شيءٍ على شعره.

ولا ريْب أن سني الإشراف على هذه الرسالة؛ قد أزكت أواصر الصلة بيني وبين موقف أبي طالب من الرسول ﷺ ، وبثّت فيها من روح الأسرة الهاشمية، وشذى سيرتها العطرة - ما دعّم أركانها، وشدّ من أزْرها؛ حتى زَكِنْتُ إلى موضوعي، وتعلّقتُ به، وعكفْتُ على ديوان أبي طالب - بل أكثر من ديوان له - قراءةً لشعره المرة تلو الأخرى؛ وفي كل مرة منها أزداد يقينًا أن هذا الشعر يعدّ ترجمة أمينة واضحة؛ وأثرا جليًّا دقيقًا لتلك الأحداث التي تضمّنتها المصادر، التي نقلت عنها ما سجّلته في بطاقاتي من قبل؛ بل يُعدّ شعر أبي طالب وثيقَةً تاريخيةً صادقةً لتلك الحقبة المصيرية في تاريخنا الإسلاميّ، ضَرْبَةَ لازِبٍ.

وعلى هذا الدَّرْب عُدْتُ بهذا الزاد الفنِّيّ، وبتلك البطاقات المرشدة إلى مصادرها التي أسهمت في بناء هذه الكلمات التي يتضمنها هذا البحث؛ والتي أقدمها حُبًّا للرسول - ﷺ - ؛ وتسجيلا لمواقف أبي طالب الذي أمضى الحِقْبَةَ الأخيرةَ من حياته - سبع سنوات طوال جسام - مُواجِهًا المصائب والمكائد؛ ومُجابِهًا الأخطار والأهوال؛ بل سائرًا مع سياق الموت؛ ومستعذبًا جمر المنية، دون كلل أو ملل؛ فداء للرسول - ﷺ - وتضحية في سبيل نصرته وحمايته.

والحق أن شعر أبي طالب كثيرٌ، وجُلُّه يُعبِّر عن تجربة بعينها؛ ويدور حول قضية واحدة؛ هي (نُصرةُ الرسول -ﷺ- وحمايتُه). ومع تعدّد أغراضه التي يتآزر بعضها مع بعض في الدفاع عن هذه القضية وتحقيقها والتي أشرت إليها عند حديثي عن (منزلة أبي طالب بين قومه) خلال البحث - أقول: مع تعدّد هذه الأغراض ووضوحها في ديوان أبي طالب؛ فإنني قد التزمت بعرض هذه الأشعار حسب الأحداث التاريخية التي لابدّ من استدعائها وتوظيفها لبيان البيئة الخاصة لكل نصّ من جهة؛ ولتوضيح المعاني لما يقول أبو طالب - قصيدة كانت أو مقطّعة - من جهة أخرى. فإذا غُمّتْ المناسبة؛ وضَنّت المصادر بذكرها، تداعت نصوصُ كلِّ غرض - من هذا الصِّنْوِ - بعضها بعضا؛ لتُشكّل فيما بينها وَحْدةً متآزرةً؛ تخدم القضيّة، ولا تهدم المنهجيّة.

وثَمّةَ ملحوظة مهمة أودّ أن أُنبّه عليها في نهاية هذه المقدمة، وهي: أنني راعيْتُ جَهدي أن أثبت في بحثي الشعر المنسوب إلى أبي طالب فقط، والوارد في ديوانيه:

١- (ديوان شيخ الأباطح أبي طالب) انظر بياناته في ثبت المصادر والمراجع.

٢- (ديوان أبي طالب عمّ النبي -ﷺ-)؛ جمع وشرح د/ محمد ألتّونجي.

وقد اعتمدتُ على الأخير منهما - على ما أشرت في حديثي عن أبي طالب مبدعًا، بالحاشية /١ص٢٢من البحث؛ استحضارًا لضميره العلميّ، وثقة بدرجته العلمية - دون تهوين من شأن غيره بالتأكيد - فأنّى لنا أن نستهين بأحد، ونحن نؤمن بالله - عز وجل - القائل في محكم تنزيله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. ؟!(يوسف: ٦٧)

على أنني استبْعدتُ منه في بحثي كثيرا مما نسب لأبي طالب وغيره.

ومع ذلك فإنني لا أَدّعي الكمال لعملي ـ فالكمال للّه وحده ـ، ومن سنة الحياة ـ لاستمرارها ـ أن يستدرك اللاحق على السابق. «ولولا أن الكلام يُعاد لنفد» كما قال الإمام عليٌّ ـ كرّم اللّه وجهه ـ ؛ ومن ثَمَّ فالطَّعْنُ واردٌ عليَّ وعلى غيري ما امتدّت الحياة؛ والثمرة الغريضة والثراء الواسع في النهاية للمكتبة العربية، أمدّها اللّه بجهود العلماء المخلصين، ونفع بها الصادرين عنها.

**وعلى الله قصد السبيل...**

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

## المبحث الأول

## نُبذَةٌ عن أصول هذه الشجرة الطيّبة
## وفروعها الضّاربة في السماء

تَأَذَّن الله ـ عز وجل ـ لخليله إبراهيمَ وابنه إسماعيلَ ـ عليهما السلام ـ أن يُعيد بناء الكعبة على أُسِّها الأول ـ بعدما رُفعت حين فُتِحَتْ ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[1]، وفُجِّرت الأرض عيونا على قوم نوح ـ عليه السلام ـ فسمعا وأطاعا تقربًا إلى الله وزلفى، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

«ثم أمر اللّه ـ عز وجل ـ إبراهيمَ أن يَنزلَ ابنهُ إسماعيلُ البيتَ؛ لما أراد الله من كرامة مَنْ أكرمه بِنَبيّه محمد ـ ﷺ ـ فكان إبراهيمُ خليلُ الرحمن، وابنهُ إسماعيلُ يليان البيت بعد عهد نوح، ومكةُ يومئذٍ بلاقعُ، ومن حول مكّة يومئذ جُرْهمٌ والعماليق»[3].

وظل إسماعيلُ ـ عليه السلام ـ حياتَه واليًا على أمْر البيت، ومن بعده وَلِيَه ابنهُ (نَبْتُ)، ما شاء الله أن يَلِيَه. ثم ولي البيتَ بعده مضاضُ بنُ عمروٍ الجرهمي[4]. وجرهم هم أخوال (نَبْت بن إسماعيل)، وإلى ذلك يشير عمرو بن الحارث بن مضاض مفتخرًا بهذه المصاهرة:

وصاهَرَنا مَنْ أكرمُ الناسِ والدًا
فأبناؤه منَّا ونحن الأصاهرُ

فلا غرابة أن تغلب جرهم على ولاية البيت بعد (نبتٍ)، «ولم يكثر ولد

---

١- (من الآية ١١ من سورة القمر).

٢- (من الآية ١٢٧ من سورة البقرة).

٣- (تاريخ الطبري: ٢/٢٨٣).

٤- (السيرة لابن هشام ١/١١١: ١١٣)، و(تاريخ الطبري: ٢/٢٨٤) وانظر في أمر جرهم أيضا (الكامل في التاريخ: ٢/٤٣ ـ ٤٤)، و(المعارف ـ لابن قتيبة ـ /٦٤٠).

إسماعيل» ـ وفي ذلك يقول الشاعر ـ في القصيدة نفسها؛ ـ مفتخرًا:

وكُنَّا ولاةَ البيتِ من بعد نابت

نطوفُ بذاك البيتِ ، والخيرُ ظاهرُ[١]

وظلّت ولايةُ البيت في جرهم رَدَحًا من الزمن، حتى طغت وبغت واستخفّوا بحق البيت، ولم يراعوا له حرمة، فكانوا من المهلكين.

ثمّ استبدّ قومٌ من خزاعة[٢] بالولاية زمنًا، «واشتدت شوكتهم، وعظم سلطانهم، حتى أحدثوا أحداثًا، ونصبوا أصنامًا»[٣]. وكانت قريشُ إلى هذا العهد صِرْمًا وبيوتًا متفرقة من قومهم بني كنانة. فلما كان زمن (حُلَيْل بن حُبْشيّة الخزاعيّ)، قدم قصيّ بنُ كلابٍ ـ الجدّ الثالث لأبي طالب ـ إلى مكة، وتقدّم إليه خاطبا ابنته (حُبَّى) التي رزقه الله منها من البنين: (عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزي، وعبد قُصَيّ)، كما خوّله -إلى جانب البنين- الشرف العظيم والمال الوفير.

فلما هلك (حُلَيْل)، وانتقلت الولاية إلى ابنه (أبي غبشان) الذي عاث في الأرض فسادًا، وملأها فجورًا حتى «باع الكعبةَ بزقّ خمر من قُصيّ بن كلاب»[٤] رأى قُصيٌّ «أن قريشًا هي قُرعُة إسماعيلَ بن إبراهيمَ وصَريحُ ولده»[٥]؛ ومن ثمَّ غلب على أمر مكة، وانتزعها مَن خُزاعة بعد قتال عنيف، وحاز شرفها

---

١- (تاريخ الطبري : ٢/ ٢٨٤).

٢- انظر في أمر خزاعة وولايتهم للبيت: (السيرة لابن هشام: ١١٣/١ : ١١٧) و(تاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٤)، و(الكامل في التاريخ: ٢/ ٤٤)، (المعارف/ ٦٤٠)، و(سبائك الذهب/ ٢٩٧).

٣- (المعارف/ ٦٤٠).

٤- (جمهرة أنساب العرب/٢٣٦)، و(سبائك الذهب/ ٢٩٦). وانظر كذلك (أنْسَاب الأشراف: ١/ ٥٠ ـ ٥١)؛ وفيه ما ذكره أبو عُبيدة، «قال الناس: أخْسر من صفقة أبي غبشان، وقال الشاعر:

أبو غُبشانَ أظلمُ من قُصَيٍّ    وأظلمُ من بني فهْرٍ خُزاعَةْ

فلا تَلْحوا قُصَيًّا في شـراه    ولُوموا شيْخَكم إذ كان باعَهْ»

٥- (السيرة: ١١٧/١). وقد جاء في الحاشية رقم/٢ ثمة: «والقرعة: نخبة الشيء وخياره. وفي الطبري... (فرعة) بالفاء وفرعة الجبل أعلاه. يريد أن قريشًا أعلى ولدِ إسماعيل».

كلّه؛ فكانت له الحجابة والسقاية، والرّفادة، والندوة، واللواء. وجمع قريشا بطاحها وظواهِرَها، وهي خمسة وعشرون بطنًا بعد تفرق وتمزق، «وقطّع مكّةَ رِباعًا بين قومه، فأنزل كلَّ قوم من قريشٍ منازلهم...»[١]؛ ومن ثَمَّ سُمِّيَ المجمّع، وإلى ذلك يقول خُذافةُ بنُ غانمٍ العدويُّ لأبي لهب بن عبد المطلب:

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعى مُجمِّعًا
بـه جمَّـع اللهُ القبـائـلَ مـن فِـهْـرِ[٢]

ثم آل هذا الشرفُ ـ بعد أحداث وصراعات، أشارت إليها المصادر التي اعتمدنا عليها هنا ـ إلى ابنيْه عبد الدار وعبد مناف ـ والأخير «كان أعظم ولد قصيّ»[٣] ـ فكان لعبد الدار الحجابة واللواء والندوة ـ بعد أن كان قصيٌّ مكّنه من هذا الشرف كله ـ؛ أما السقاية والرفادة فكانت لعبد مناف، ولبعض أبنائه الذين سادوا، وارتفع نجمهم» وجبر الله بهم قريشًا، فقيل: أَقْرَشُ من المجبّرين، لأنهم كانوا سببا في جَبْر قريش. والقَرْشُ التجمّع، وذلك بالإيلاف الذي صنعوه»[٤]؛ فقد كان هاشم بن عبد مناف –واسمه عمرو– «صاحب إيلاف قريش... وهو أول من سَنَّ رِحْلَتَيْ الشتاء والصيف[٥]، وهو الذي عقد الحلفَ لقريش من هرقل، لأن تختلف إلى الشام آمنة.

وكان المطلب بن عبد مناف «هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشيِّ في متجرها إلى أرضه.

---

١– (طِبقات ابن سعد: ١/٧١).

٢– المصدر السابق الصفحة نفسها. وانظر في أمر قُصيّ (واسمه: زيد) وما شهر به: (السيرة النبوية: ١/١٢٤: ١٢٩)، و(أنساب الأشراف: ١/٤٨ : ٥٦)، وطبقات ابن سعد: ١/٧٠ ـ ٧١)، و(المَحبر لابن حبيب/١٦٤ ـ ١٦٥)، و(المعارف/٧٠، ١١٧، ٦٤٠) و (تاريخ الطبري: ٢/٢٨٤...)، و(مروج الذهب: ٢/٢٧٥، ٢٧٦)، و(نشوة الطرب: ١/٣٢٢)، و(العقد الثمين/١٤٨)، و(الجامع اللطيف/١١٤)، و(سبائك الذهب/٢٩٦) ، و(حياة محمد/ ٨٩ : ٩١)، وغيرها من المصادر التاريخية.

٣– (نشوة الطرب : ١/٣٢٧).

٤– (نشوة الطرب : ١/٣٢٧).

٥– (أنساب الأشراف : ١/٥٩)، و(العقد الثمين : ١/١٤٨).

أما نوفل بن عبد مُناف «فهو الذي عقد الحلف لقريش مع كسرى إلى العراق»[١].

هذا، وقد ولي هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة بعد أبيه، ليساره «وكان أكبر ولد عبد مناف سنًا وقدرًا»[٢]. ويحدثنا ابن سعد بسنده عن أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، فيقول: «كان اسم هاشم عَمرًا، وكان صاحب إيلاف قريش وإيلاف قريش دَأْبُ قريش... فأصابت قريشًا سنواتٌ ذهبن بالأموال. فخرج إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبزَ له، فحمله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبْزَ، يعْني كسره وسرَدَه، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاةَ فطبخوا، ثم كَفَأ القُدورَ على الجفان، فأشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم؛ فسمّيَ بذلك هاشما، وقال عبد اللّه بن الزِّبَعْرَى في ذلك:

عَمْرو العُلا هشم الثّريدَ لقومه
ورجالُ مكةَ مُسْنِتونَ عِجافُ

وهو الذي سنَّ الرحيلَ لقومه
رِحَلَ الشتاء ورحلَةَ الأصيافِ

... فحسده أميةُ بنُ عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ، وكان ذا مال، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة... فكانت هذه أول عداوةٍ وقعت بين هاشم وأمية»[٣].

---

١- انظر في كل هذا (طبقات ابن سعد: ١/٧٥ ـ ٧٦، ٨٠).

٢- (نشوة الطرب: ١/٣٢٩).

٣- (الطبقات: ١/٧٥ ـ ٧٦). وانظر (أنساب الأشراف: ١/٦٠ ـ٦١)، وفيه يقول: «فغضب ـ أي أميّةُ ونافر هاشمًا على خمسين ناقة سُودِ الحدَق تُنحَر بمكة، وعلى الجلاء عشر سنين.. وسبق هاشم أميّة... فأخذ هاشم الإبل فنحرها... وخرج أمية إلى الشام فأقام عشر سنين...» وقال (الشاعر) في ذلك:

لمّا تنافَر ذو الفضائلِ هاشمٌ　　وأُميَّةُ الخيراتِ نُفِّرَ هاشمُ

هذا، وقد انتقل هذا الشرف إلى المطلب بن عبد مناف بوصيّة من أخيه هاشم «فبنو هاشم وبنو المطلب يدٌ واحدة... وبنو عبد شمس وبنو نوفل ابنا عبد مناف يدٌ» واحدة كذلك[١]. وقد كان (المطلب) سيدًا شريفًا مطاعًا في قومه، وقد أُطْلِق عليه اسم (الفَيْض) لكرمه وسماحته[٢].

وقد ورث عبد المطلب بن هاشم (واسمه شيبة الحمد)، الرّفادة والسقاية بعد عمه (المطلب)[٣].

«وكان عبد المطلب أحْسنَ قريش وَجْهًا، وأمدَّه جسمًا، وأجودَه كفًّا، وأبْعَد الناسِ من كلِّ مُوبقةٍ تفسد الرجال، ولم يره مَلكٌ قطُّ إلا أكرمه وشفّعه، وكانَ سيدَ قريشٍ حتى هلك»[٤]؛ بل يُعدّه سيفُ بنُ ذي يزّن - حينما قدم إليه عبد المطلب ضمن وفود العرب لتهنئته بالظفر بالحبشة - «ملكًا رِبِحْلاً (أي عظِيمًا)، يُعطي عطاءً جزيلاً»، ويخص قومه بقوله: «فأهل الشّرف والنباهة أنتم»، ويبشره بنبّوة محمد ﷺ في كلمة طويلة، ويُوصيه بحمايته من اليهود، وَطيٍّ ما ذكره له «دون هؤلاءِ الرهْط الذين معك، فإني لست آمُنَ أن تدْخلَهم النَّفاسةُ، من أن تكون لكم الرياسةُ، فيبْغُون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم»[٥].

ومن ثَمّ أوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب بسقاية زمزم، وحفظ رسول اللّه ﷺ وحياطته من بعده، «وقال له: قد خلفت في أيديكم الشّرفَ العظيمَ الذي تطئون به رقابَ العرب»[٦].

---

١- المصدر السابق ٧٩/١، وانظر: (سبائك الذهب/ ٣٠٩) وانظر كذلك في ولاية المطلب: (السيرة: ١٣٧/١: ١٤٢) و(العقد الثمين: ١٤٨/١).

٢- انظر (السيرة: ١٣٧/١). (وطبقات ابن سعد: ٨١/١).

٣- انظر (السيرة: ١٤٢/١).

٤- (طبقات ابن سعد: ٨٥/١).

٥- انظر ذلك كله في (العقد الفريد: ٢٥/٢: ٢٧).

٦- (تاريخ اليعقوبي: ١٣/٢)، وانظر (السيرة النبوية: ١٧٩/١: ١٨٣)، و(الكامل لابن الأثير: ٢٢/٢)؛ وفيه - الصفحة نفسها وفي (نشوة الطرب: ٣٣٧/١)، و(الجامع اللطيف /١١٦) «أنه ورث الرفادة واستمر إلى أن جاء الإسلام». على أن الأمر خلاف ذلك؛ انظر: (أنساب الأشراف: ٥٧/١).

## المبحث الثاني

## منزلة أبي طالب بين قومه

لقد خص عبد المطلب ابنه أبا طالب برعاية الرسول ـ ﷺ ـ وهم كُثر[١]، لأنه كان أخًا شقيقًا لعبد الله والد الرسول ـ ﷺ ـ «فأم عبد الله، وأبي طالب، والزُّبيْر، وجميع النساء غير صفية: فاطمةُ بنتُ عمرو بين عائذ بنِ عمرانَ بنِ مخزوم بن يقظةَ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤيٍّ بن غالبِ بن فهرِ بنِ مالكِ بن النَّضر»[٢].

وقد ورث أبو طالب الشرفَ والنّباهة والمجدَ والعُلا عن آبائه وأجداده؛ فهو من قرعة إسماعيلَ بن إبراهيمَ ـ عليهما السلام ـ ومن صَريح ولده[٣]؛ وقُصيٌّ بنُ كِلاب «فيه البيت والشرف»؛ وعبد مناف بن قصيّ « فيه ـ كذلك ـ البيت والشرف» وهاشم بن عبد مناف «فيه العدد والشرف»، وعبد المطلب بن هاشم «فيه العمود والشرف»[٤]. بل حسبه فضلاً وشرفًا أنه عم الرسول ـ ﷺ ـ ووالدُ الإمام عليٍّ كرّم الله وجهه.

هذا، وقد وُلد أبو طالب ـ واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب ـ سنة (٨٥) قبل الهجرة؛ أي قبل مولد النبي ـ ﷺ ـ بخمس وثلاثين سنة. ومات «في النصف من شوال في السنة العاشرة

---

١- انظر في أولاد عبد المطلب (السيرة : ١٠٨/١)، و(طبقات ابن سعد: ٩٢/١ ـ ٩٣)، و(أنساب الأشراف: ٨٧/١: ٨٩)، و(مروج الذهب: ٢٩٣/٢)، و(سبائك الذهب/٣١٤ـ ٣١٥).

٢- (السيرة: ١٠٩/١، ١٧٩)، و(أنساب الأشراف: ٨٨/١)، و(مروج الذهب: ٢٩٣/٢) و(المعارف/١١٩)، و(جمهرة أنساب العرب /١٥)؛ وانظر في شأن أبي طالب (كتاب الإصابة: ١١٢/٧: ١١٦)، و(مجمع الزوائد : ٤١٦/٩).

٣- (السيرة: ١١٧/١).

٤- (جمهرة أنساب العرب/١٤).

من النبوة، وهو ابن بضع وثمانين سنة، أي سنة (٣) قبل الهجرة[١].

وكان أبو طالب كذلك من أشراف قريش، ومن حكامهم[٢]، «ومن أبطال بني هاشم ورؤسائهم، ومن الخطباء العقلاء الأُباة»[٣].

وقد عدّه ابنُ سلاّم من أبْرع شعراء مكةَ، ورأى أنه شاعر جيد الكلام[٤]. وقال ابنُ كَثِيرٍ تعليقًا على لامية أبي طالب التي نظمها وهو في الحصار والمقاطعة داخلَ الشِّعب:

«هذه قصيدة عظيمة بليغة جدًّا لا يستطيع يقولها إلا من نُسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى فيها جميعها»[٥].

أجل، لأبي طالب شعرٌ كثيرٌ منثور في كثير من كتب التراث. وقد انبرى لجمعه وتحقيقه كثيرٌ من العلماء؛ ومن ثَمَّ رأينا:

- ديوان شيخ الأباطح أبي طالب - جمع أبي هفّان عبد الله بن أحمد المهزمي العبدي، رواية عفيف بن أسعد، عن عثمان بن جِنّي النحويّ مشروحًا وقد صححه وعلق عليه: محمد صادق آل بحر العلوم.

و- ديوان أبي طالب عمّ النبي - ﷺ - ، جمعه وشرحه د/ محمد التّونجي - وصدر عن دار الكتاب العربي[٦].

هذا، وقد اسْتقلّت لاميّة أبي طالب ببعض الشروح، منها:

(زهرة الأدباء في شرح لامية شيخ البطحاء أبي طالب بن عبد المطلب

---

١- انظر: (طبقات ابن سعد: ١/١٢٥)، و(أنساب الأشراف: ١/٢٣٦)، و(خزانة البغدادي:٢/٧٥-٧٦) والأعلام للزركلي: ٤/٦٦).

٢- انظر (المحبّر / ١٦٤)، و(النمق/ ٣٦٨)، و(فجر الإسلام /٢٢٦).

٣- (الأعلام: ٤/١٦٦).

٤- طبقات فحول الشعراء / ٢٣٣، ٢٤٤).

٥- (البداية والنهاية: ٣/٥٧) وانظر: كذلك (خزانة البغدادي: ٢/٥٨).

٦- وهذا ما أعتمد عليه، وأفيد من حواشيه، وأطلق عليه في الحاشية كلمة (الديوان). أما إذا خرجت عنه فسأحدّد ما انتقلت إليه، ونقلت عنه.

بن هاشم) تأليف/ جعفر نقدي.

إلى غير ذلك من الجهود التي بُذلت في جمع ديوان أبي طالب وتحقيقه، وهي كثيرة.

هذا، وقد تضمن ديوان أبي طالب كثيرا من الأغراض الشعرية؛ من إشادة ومدح، وزهوٍ وفخر، وحثٍّ وتحضيض، وهجاءٍ وتعريض، وإنذارٍ وتهديد، ونُصحٍ وإرشاد، ولوم وعتاب؛ ووصف، إلى غير ذلك. بيْد أنني - على ما أشرت في المقدمة - سأنهج في عَرضي لهذه الأشعار عرضا تاريخيا حسب الأحداث التاريخية التي لابدّ من توظيفها لتوضيح معاني النص موضع النظر. أما العرض حسب اتحاد الغرض فلن ألوذ إليه، أو آخذ به إلا إذا غُمَّ تاريخ النَّص؛ فإنني والحال هذه سأعرض النص تلْوَ ما يناسبه ويتّحد معه؛ إيثارًا للتآزر بين النصوص بعضها ببعض.

## المبحث الثالث

## الرسول ـ ﷺ ـ في كفالة عمّه
## وفي صحبته في رحلته إلى الشام

انتقل الرسول ـ ﷺ ـ إلى كفالة عمه وعمره ثماني سنوات[1]. وقد عمل أبو طالب بوصية أبيه، وحمل هذه الأمانة راضيًا، وسرّ بها كثيرا، ورعى ابن أخيه لأمه وأبيه رعاية لم يمنحها أحدًا قطُّ؛ إذ يذكر ابن سعد عن سنده أن أباطالب «كان يحبه حبًّا شديدا لا يحبّه ولدَه، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبَّ به أبو طالب صَبابةً لم يَصَبّ مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام...»[2]. أو كما يقول ابن إسحاق : «فكان إليه ومعه»[3].

وقد كان لأبي طالب تجارة كسائر قريش، بل ذكر ابن قتيبة في حديثه عن (صناعات الأشراف)، أن أبا طالب كان «يبيع العطر وربّما باع البُرّ»[4].

هذا، ولنترك ابن إسحاق يقصّ علينا قصة نزول أبي طالب في إحدى رحلاته التجارية ورسول الله ـ ﷺ ـ معه ببَحيرَا الرَّاهب فيقول:

«ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيَّأَ للرحيل، وأجمع المسير صَبَّ به رسول الله ـ ﷺ ـ ... ، وبكى... فرقّ له (أبوطالب)، وقال: والله لأَخْرجنّ به معي، ولا يُفارقني، ولا أُفارقه أبدًا... فخرج به معه، فلما نزل الركبُ بُصرى من أرض الشام، وبهما راهبٌ يقال له بَحيرَا في صومعة له، وكان إليه علمُ أهل النصرانية... وكانوا كثيرا ما يمرّون به قبل ذلك فلا يُكلّمهم ولا يعرضُ لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبًا من

---

١- انظر (طبقات ابن سعد: ١/١١٩)، و(مروج الذهب: ٢/٢٨١)، و(الكامل لابن الأثير: ٢/٣٧).

٢- (الطبقات الكبرى: ١/١١٩ـ ١٢٠) ـ وصَبَّ به: مال إليه. وفي رواية ضَبَّ به : تعلّق به وامتسك.

٣- (السيرة: ١/١٧٩).

٤- (المعارف / ٥٧٥).

صومعته صنَع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك... أنه رأى رسول الله - ﷺ - وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا، وغمامةٌ تُظلّه من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرةٍ قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلَّت الشجرة، وتهصَّرَتْ أغصانُ الشجرة على رسول الله - ﷺ - حتى استظل تحتها...». وتشير الرواية إلى أنهم حينما استجابوا لدعوته، واجتمعوا، وتخلّف رسول الله - ﷺ - لحداثة سِنّه، في رِحال القوم تحت الشجرة؛ أصرّ بَحيرَا عليهم أن يدعوا هذا الغلام، ليحضُرَ الطعامَ معهم، فلما حضر احتضنه، وأجْلسه مع القوم، وظلّ «يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان عنده من صفته، حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بَحيرا» قائلا له: ... «فبالله إلاَّ ما أخبرتني عما أسألك عنه؛ فقال له: سَلْني عمّا بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره» والرسول يُجيب، فتتوافق إجابتُه مع ما عند بَحيرَا من صفته. «ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النّبوة بين كتفيّه على موضعه من صفته التي عنده»...

فلما فرغ، أقبل على عمّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال بَحيرا: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا، قال: فإنه ابنُ أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حُبْلى به؛ قال: صدقت، فارْجع بابن أخيك إلى بلده، واحْذرْ عليه يهودَ، فوالله لئن رأوْه، وعرفوا منه ما عرفتُ ليَبْغُنَّه شرًّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده».

ويتتبع ابنُ إسحاق أحداثَ عودةِ أبي طالب إلى مكة سريعا حين فرغ من تجارته بالشام، فيقول:

« فزعموا فيما روي الناسُ : أن زَرَيْرًا وتَمَّمًا ودَريسًا، وهم نفرٌ من أهل الكتاب، قد كانوا رأوْا من رسول الله - ﷺ - مثل ما رآه بَحيرَا في ذلك السفر

الذي كان فيه مع عمّه أبي طالب، فأرادوه فرّدهم عنه بَحيرا، وذكّرهم اللّه، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به، لم يخْلُصوا إليه، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدّقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه»[1].

هذا، وعلى ضوء ما ورد في صدر هذه الأحداث السابقة نرى أن أبا طالب قد اهتزت مشاعره حينما بكي رسول اللّه - ﷺ - وتعلّق بركابه، متلهّفًا على مصاحبته معه في رحلته إلى الشام؛ ومن ثَمَّ أنشأ يقول[2] مستجيبًا لطلّبته؛ مُلبِّيًا رغبته؛ داعيا إياه إلى الاستعداد للرحيل معه؛ مؤكدًا له أُنسَه به وسعادتَه بمصاحبته؛ متمنيًا له السلامة في ذهابه وإيابه: (الطويل)

بكى طربًا لمَّا رآني محمدٌ
كأنْ لا يراني راجعًا لمعادِ

فبتُّ يُجافِيني تهلُّلُ دَمعِه
وعَبْرتُه عن مَضْجعي ووِسادِ

فقلت له: قرِّبْ قُتُودَك وارْتَحلْ
ولا تخشَ منّي جَفْوةً ببلادِ

وخَلِّ زِمام العِيسِ وارْحَلْ بِنا معًا
على عَزْمةٍ من أمرنا ورشادِ

---

١- السيرة النبوية: ١/١٨٠: ١٨٣) وانظر هذه القصة بإيجاز شديد في (طبقات ابن سعد: ١/١٢٠-١٢١)، و(أنساب الأشراف: ١/٩٦-٩٧)، و(مروج الذهب: ٢/٢٩٣)، و(حياة محمد/ ١٠٦).

٢- (الديوان/ ٤٠) والمقطعة ستة أبيات.

ورُحْ رائحًا في الرائحين مُشيَّعًا
لــذي رَحِـــمٍ والــقــومُ غــيرُ بِـعـادِ

فرُحْنا مع العِيرِ التي راح ركبُها
يَـؤُمُّــون مـن غَـوْرَيْـن أرْضَـ إيـادِ

يقصد أرض الشام «فقد غلبت إياد على أرض الروم والفرس»[1].

ولما رجع أبو طالب إلى مكة، وقد هاله ما سمع من الراهب بحيرا ووصيّته له بالحفاظ على محّمدٍ رسول الله ـ ﷺ ـ تذكّرَ وصية أبيه عبد المطلب له، بحفظه ورعايته؛ وبخاصة بعد أن سمع عبد المطلب من سيف بن ذي يزن ما سمعه بشأنه فقال أبو طالب مُتَخيِّلاً أباه مخاطبًا إيّاه[2] (الرَّجز):

لا تُوصيني بــلازمٍ وواجــبِ
إنّي سـمـعتُ أعْـجـبَ الـعـجائـبِ

مـن كـلِّ حَـبْرٍ عـالـمٍ وكـاتـب
بــأن يَـحْـمَـدَ اللهُ قــولَ الـراهـبِ.

هذا، ثم يصوغ أبو طالب قصة سفر الرسول معه إلى الشام، وما جرى فيها من أحداث مسرورًا بها، مُبتهجًا لها مشيدًا بالرسول ومُطْرِيًا عمومته خلالها، فيقول[3] (الطويل):

ألم تـرني مـن بعد هَـمٍّ هَمَمْتُهُ
بـفُـرقـة حُــرٍّ مـن أبِـــينَ كـرامِ

١- ديوان شيخ الأباطح أبي طالب / ٣٥ .
٢- (الديوان/ ٢٢ ـ ٣٢). والشاهد أربعة أشطر.
٣- (الديوان/ ٨٧ ـ ٨٨) والقصيدة عشرون بيتًا.

بأحمدَ لما أن شددْتُ مطيَّتي
بِرَحْلي وقد ودَّعتُه بسلام

فلما بكي والعيسُ قد قَلُصَتْ بنا
وقد ناشَ بالكفَّيْن ثِنْيَ زِمام[1]

ذكرتُ أباه ثُمَّ رقْرَقْتُ عَبرَّةً
تجودُ من العينين ذاتَ سِجام

فقلتُ: ترحَّلْ راشدًا في عُمومةٍ
مُواسِينَ في البأساء غيرِ لِئام

وجاء مع العيرِ التي راح ركْبُها
شآميَّ الْهوى والأصْلُ غيرُ شآم

فلما هبطنا أرضَ بُصرى تشوَّفُوا
لنا فوق دُورٍ ينظرون عِظامِ

فجاء بَحيرًا عند ذلك حاشدًا
لنا بشرابٍ طيِّبٍ وطعامِ

فقال: اجْمعوا أصحابكم عندما رأى
فقلنا: جمعنا القومَ غيْرَ غُلامِ

---

١- يريد: قد تناول محمدٌ - ﷺ - باكيا طيّات زِمام ناقة عمه بكفيه الكريمتين، حينما رأى النّوق نهضت للسير بهم. وناش: تناول. «وثِنْيَ زِمام : طيّة الحبل واللجام».

يتيمٍ فقال: ادْعوهُ إنّ طعامَنا

لـه دونكم من سُوقةٍ وإمـامِ

وآلى يمينًا بَرَّةً: إنّ زادَنا

كثيرٌ عليه اليومَ غيرُ حَرامِ

فلولا الذي خَبَّرْتُمُ عنْ محمدٍ

لكنتُمْ لدْينا اليومَ غيرَ كرامِ

وأقبلَ ركْبٌ يطلبون الذي رأى

بَحيراءُ رأْيَ العين وسْط خِيامِ[1]

فثارَ إليهم خَشْيةً لعُرامهمْ

وكانوا ذوي بَغْيٍ معًا وعُرامِ[2]

دريسٌ وهمَّامٌ، وقد كان فيهُمُ

زَريرٌ وكلُّ القومِ غيرُ نيامِ

فجاءوا وقد هَمُّوا بقتْل محمدٍ

فرَدّهُمُ عنه بحُسنِ خِصامِ

بتأويلهِ التوراةَ حتى تَيقَّنُوا

وقال لهمْ: رُمْتُمْ أشدَّ مَرامِ

---

١- يقصد بالركب هؤلاء النفر الذين هم من أهل الكتاب - أحبار اليهود - زريرًا، وهماما ودريسًا، على ما سيأتي في البيت الخامس عشر.

٢- العُرام: الشّدّة والشّراسة.

أتبْغون قتلاً للنبيِّ محمدٍ؟

خُصِصْتُمْ على شُؤمٍ بطُولِ أثامِ!

وإن الذي يختارُه منه مانعٌ

سيكفيه منكم كيْدَ كلِّ طَغَامِ

فذلك من أعلامه وبيانه

وليس نهارٌ واضحٌ كظلامِ

ويبدو أن هذه القصة قد ملأت على أبي طالب نفسه، وفاض بها وجدانه؛ واهتزّت لها مشاعره كثيرا؛ ومن ثمَّ نراه ينظمها مرة أخرى؛ مادحًا النبي ـ ﷺ ـ وهو صغير؛ معليًا من قدره عنده، معلنا حفاظَه على وصية أبيه عبد المطلب بشأنه، مشيدًا بكرم عمومته ومضائهم في قضاء حوائجهم، مُطْرِيًا نُبلَهم وشرفَهم، فيقول[1] (الكامل):

إن الأمينَ محمدًا في قوْمِه

عندي يفوقُ منازلَ الأولادِ

لمّا تعلَّقَ بالزِّمام ضَمَمْتُهُ

والْعِيسُ قد قَلَّصْنَ بالأزوادِ

فارْفضَّ من عَيْنَيَّ دمعٌ ذارفٌ

مثلُ الجُمانِ مُفَرَّقٌ بِبدادِ[2]

---

١- (الديوان / ٣٨ ـ ٣٩) والقصيدة اثنا عشر بيتًا.

٢- «البداد: اللبد تحت السرج والقتب».

رَاعــيْــتُ فيـه قــرابــةً موصولةً

وحَــفـِـظْــتُ فـيــه وصــيَّــةَ الأجــــدادِ

ودعــوتُــه لـلـسَّــيْر بــيْن عُمومةٍ

بِـيـضِ الــوجـوه مَـصــالـتٍ أمْجــادِ

ســـاروا لأبْــعــدِ طِــيَّــةٍ معلومةٍ

فـلـقـد تُــبــاعَــدُ طِــيَّـــةُ المُـــرْتـــادِ

حتى إذا ما القومُ بُصْرَي عاينوا

لاقَـــوْا عـلـى شَـــرَفٍ مـن المـرصـادِ

حَـبْرًا فأخْـبَرَهـمْ حديثًا صادقًا

عـنـــه، ورَدَّ مـعـاشِـرَ الحُـسَّـادِ

قــومٌ يـهـودٌ قـد رأوْا مـا قـد رأى

ظِـلَّ الـغـمـامـةِ ثـاغِـرِي الأكـبـادِ

ثـــاروا لـقـتْـل مـحـمـدٍ فـنـهـاهُـمُ

عـنـه، وجـاهـدَ أحـســنَ الـتِّـجْـهـادِ

وثـنـى بَـحـيـراءُ زريـــرًا فـانـثـنى

في الــقـــوم بـعـد تَجـــادُلٍ وتـعـادِ

ونهيَ دَرِيسًـا فانتهى لمَّا نُهِي

عــن قـــول حَـــبْرٍ نـاطــقٍ بـسَــدادِ

هذا، ويقول ابن سعد مشيرًا إلى حياة النبي - ﷺ - بعد عودته من رحلته الشامية إلى مكة بصحبة عمّه[1]:

« وثبت رسول اللّه - ﷺ - مع أبي طالب يكلؤه اللّه ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها؛ لما يُريد به من كرامته... حتى أنْ كان رجُلاً أفضل قومه مروءةً، وأحسنَهم خُلقًا، وأكرمَهم مُخالطةً، وأحسنَهم جِوارًا، وأعظمَهم حِلْمًا وأمانةً، وأصدقَهم حديثًا، وأبْعَدهم من الفحش والأذى، وما رُئيَ مُلاحِيًا ولا مُماريًا أحدًا، حتى سماه قومُه الأمينَ؛ لما جَمَع اللّه له من الأمور الصالحة فيه، فلقد كان الغالبَ عليه بمكةَ الأمينُ، وكان أبو طالب يحفظه ويحوطه ويُعَضِّده وينصره إلى أن مات».

١- (الطبقات الكبري: ١/١٢١).

## المبحث الرابع

### الرسول الله ـ ﷺ ـ
### حاكما بين قومه قبل مبعثه

هذا، وقد بنت قريشٌ الكعبةَ ـ بعد أن هدمها السيل ـ ورفعت سَمْكَها على ما أرادت، وانتهَوْا إلى موضع الحجر الأسود، وتنازعوا بينهم أيهم يضَعُه. «فاتفقوا أن يرْضوْا بأَوَّل مَنْ يطْلعُ عليهم من باب بني شَيبة، فكان أولَ مَنْ ظهر لأبصارهم النبيُّ ـ ﷺ ـ من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه بالأمين، لوقاره وهَدْيه، وصِدْقِ اللهجة، واجتنابه القاذورات والأدْناس»؛ فحكمّوه فيما بينهم، وانقادوا إلى قضائه. فبسط الرسول ـ ﷺ ـ رِداءَه، ورفع الحَجرَ ووضعه في وسطه؛ ثم قال لأربعة من أهل الرياسة والزعامة في قريش، ليأخذَ كلٌّ منكم بطرفٍ من هذا الرداء، «فشالوه حتى ارتفع عن الأرض، وأدْنَوْه من موضعه، فأخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحجرَ، ووضعه في مكانه، وقريشٌ كلُّها حضور، وكان ذلك أوَّلَ ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه.

فقال قائلٌ ممّن حضر قريش، مُتعجِّبًا من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سنًّا: وَاعجبًا لقوم أهلِ شرفٍ ورياسةٍ وشُيوخٍ وكُهولٍ عَمَدوا إلى أصْغرهم سنًّا، وأقلِّهم مالاً؛ فجعلوه عليهم رئيسًا وحاكمًا! أما واللاتِ والعُزَّى لَيَفُوقَنّهم سَبْقًا، ولَيَقْسِمنّ بينهم حُظوظًا وجُدودًا، ولَيكوننّ له بعد هذا اليوم شأنٌ ونبأٌ عظيم.

وكان أبو طالب حاضرًا، فلما سمع هذا الكلام من هذا القائل في النبي ـ ﷺ ـ وما يكون من أمره في المستقبل، أنشأ يقول مفتخرًا بحكمه (الرَّجز):

إنّ لـنـا أوّلَـــه وآخِـــرَه

فِي الحُكْمِ والـعـدْل الـذي لا نُنْكِرَه

وقـد جَـهِـدْنـا جَـهْـدَه لِنَـعْـمُـرَه

وقـــد عَـمـرْنـا خَـــيْرَه وأكْـــثره

فإن يكن حقًّا ففينا أوْفرَه[1]

---

١- (مروج الذهب: ٢/٢٧٨: ٢٨٠) وانظر القصة ورجز أبي طالب في (الطبقات الكبري: ١/٤٧:١٤٥). وقد اعتمدنا روايته في نقل الرّجز، لأنها أفضل - عندي - من رواية المسعوديّ في (مروج الذهب) - فضلاً عن أقدميتها -؛ حيث أوْرَده هكذا:

إنّ لنـــا أوّله وآخِـــرَه — فِي الحَكَمِ العدْل الذي لا نُنْكِرَه

وقد جَهِدْنا جَهْدنا ليغمره — وقد عَهِـــدنا خَيْـــرَه وأكْثَـــرَه

فإن يكن حقًّا ففينا أكثره

وانظر كذلك قصة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في (السيرة النبوية: ١/١٩٦ - ١٩٧)، (أنساب الأشراف: ١/٩٩ - ١٠٠) ، وقد ذكر البلاذري القصة وأربعة أشطر من الرجز ثَمَّةَ برواية مختلفة - (وانظر القصّة أيضًا في: الكامل في التاريخ : ٢/٤٤ - ٤٥)، و(حياة محمد/ ١١٥).

## المبحث الخامس

## مبعث الرسول - ﷺ - ومرحلة الدعوة السِّرِّية إلى الإسلام

بعد خمس سنوات من هذا الموقف الجليل والحكم الفذّ العظيم، بعثه اللّه - عز وجلّ - وأكرمه بما اختصه به من نُبوّته. وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة. وأخفى أمره فيها ثلاث سنين؛ إذ كان الرسول - ﷺ - وأصحابُه، في هذه المرحلة السِّرِّيَّة، إذا صلّوا «ذهبوا في الشِّعاب، فاسْتَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم»[1].

وفي موطن آخر يقول ابنُ إسحاق[2]:

«وذكر بعض أهل العلم أن رسول اللّه - ﷺ - كان إذا حضرت الصلاةُ خرج إلى شِعاب مكةَ، وخرج معه على بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه... ثم إن أبا طالبٍ عَثَر عليهما يومًا وهما يُصلّيان؛ فقال لرسول اللّه - ﷺ -: يا ابن أخي؛ ما هذا الدينُ الذي أراك تدينُ به؟ قال: أيْ عمُّ؛ هذا دينُ اللّه، ودينُ ملائكته، ودينُ رُسله، ودينُ أبينا إبراهيمَ... فقال أبو طالب:... واللّهِ لا يُخْلَصُ إليك بشيءٍ تكرهه ما بقتُ.

وذكروا أنه قال لعليٍّ: أي بُنَيَّ؛ ما هذا الدينُ الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ؛ آمنت باللّه وبرسول اللّه، وصدّقتُه بما جاء به، وصلَّيْت معه واتّبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يَدْعُك إلا إلى خيرٍ فالْزَمْهُ».

هذا، ويُروى أن أبا طالب قد مرّ يومًا برسول اللّه - ﷺ - «وهو يصلّي وعليٌّ عن يمينه، وجعفرٌ مع أبي طالب يكتُم إسْلامه، فضرب عَضُدَه وقال: اذهب فَصِلْ جَناح ابن عمِّك، وقال - مفتخرا بشجاعة ولديه على وجعفر

١- (السيرة النبوية : ١/٢٦٣). وانظر: (أنساب الأشراف : ١/ ١١٦ - ١١٧).

٢- (السابق ص/٢٤٦ - ٢٤٧).

وإقدامهما؛ مُتباهيًا بهما؛ ناصحًا لهما بشدّ أزر الرسول - ﷺ - ونصره، آليا على نفسه أن يظلّ هو وأولاده إلى جانبه، ولن يخذلوه أبدا (المنسرح):

إن علـيًّـا وجـعْـفـرًا ثقتي
عـنـد احْـتـدام الأمـورِ والـكُـرَبِ
أراهـمـا عُـرْضَـةَ الـلـقـاءِ إذا
سـامَـيْـتُ أو أنْـتَـمـي إلى حسبِ
لا تَـخْـذُلا وانْـصُـرا ابـنَ عمِّكما
أخـي لأمـيّ مـن بيـنـهـم وأبـي
والله لا أخْـذُلُ الـنَّـبـيَّ ولا
يَـخْـذُلُـه مـن بَـنِـيَّ ذو حـسـبِ» [1]

وبعد ذلك يتوجه إلى عليٍّ، مُوصِيًّا إياه بلزوم محمدٍ - ﷺ - ومؤازرته، والشدّ على يديْه، قائلا له[2] (الكامل):

إن الـوثيقةَ في لُـزوم محمّدٍ
فـاشْـدُدْ بصُحْبتـهِ علـيَّ يَدَيْكا.

١- (الديوان / ٢٢) والمقطعة أربعة أبيات. واللقاء : المقصود به هنا القتال والحرب. وساميْت: أي فاخرت.

٢- (الديوان / ٦٠) والشاهد بيتٌ واحد. والوثيقة: ما يحكم به الأمر.. والوثيقة في الأمر: إحكامه.

## المبحث السادس

## مرحلة الجهر بالدعوة والمواجهة بين أبي طالب وقومه للذود عن الرسول ـ ﷺ ـ وحمايته.

بعد أن دخل الناسُ في المرحلة السرّية من الدعوة النبويّة في الإسلام أرْسالا من الرجال والنّساء، حتى انتشر ذكرُه بمكةَ ـ أمر اللّه ـ عز وجل ـ رسوله ـ ﷺ ـ بإظهار[1] دعوته، ومباداة الناس بأمره، بقوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2].

كما أمره سبحانه بأن يبدأ بعشيرته، وأن يترفق بمن اتبعه منهم، بقوله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

أجل لقد صدع الرسول ـ ﷺ ـ بأمر ربه، ودعا عشيرته، وأوْلَم لهم، فحضروا، وقبل أن يتكلم معهم، صدّه أبو لهب، وانفض اللقاء، ودعاهم الرسول مرة ثانية، و... ثم قال:

«الحمد للّه، أحمده وأستعينه ـ وأومن به، وأتوكّل عليه، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذبُ أهلَه، واللّه الذي لا إله إلا هو إنيّ رسولُ اللّه إليكم خاصة وإلى الناس عامّة... فقال أبو طالب: ما أحَبَّ إلينا مُعاونتَك وأقْبَلَنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنّما أنا أحدهم، غير أني أسرَعُهم إلى ما تُحبّ،

---

١- انظر التفاصيل في: (السيرة النبوية: ٢٦٤/١ : ٢٦٨)، و(الطبقات الكبرى: ١٩٩/١: ٢٠٢)، و(أنساب الأشراف : ١١٧/١ : ١٢٢)، و(تاريخ الطبري: ٣١٨/٢ : ٣٢٨)، و(الكامل في التاريخ:٦٦/٢:٦٠)، و(البداية والنهاية: ٣٨/٣ :٤٦).

هذا، على أننا سنصدر في حديثنا عنها، وننسج كلامنا بخيوط مما ورد فيها جملة.

٢- الآية / ٩٤ من سورة الحجر.

٣- الآيتان / ٢١٤ ـ ٢١٥، من سورة الشعراء.

فامض لما أُمِرْتَ به فوالله لا أزالُ أحوطُكَ وأمْنعُكَ...

فقال أبو لهب: هذه والله السَّوأة ! خذوا على يديْه قبل أن يأخذَ غيرُكم. فقال أبو طالب: والله لنَمْنَعَنَّه ما بقينا»[1].

١-(الكامل في التاريخ: ٢/٦١). وانظر (أنساب الأشراف: ١/١١٩) وفيه: «وتكلم القوم كلامًا ليّنًا، غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب؛ هذه والله السَّوْءَة، خُذوا على يَدَيْه قبل أن يأخذ على يديْه غيرُكم. فإن أسلمتموه حينئذ، ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم، فقال أبو طالب...».

## المبحث السابع

### وفود قريش إلى أبي طالب بشأن الرسول - ﷺ -

لما دعا الرسول - ﷺ - عشيرته الأقربين، لم ينأوْا عنه، ولم يُغْلِظوا القول له في بادىء الأمر، إلا ما كان من أبي لهب وأبي جهل.

أما عنْدما عاب آلهتَهم، وسبَّ دينَهم، وسفّه أحلامهم، وضلّلَ آباءهم - قلبوا له ظَهْرَ المِجنّ، وأجمع الكثير منهم على خِلافه ومعاداته في الوقت الذي ظلّ فيه أبو طالب حَدِبًا عليه قائمًا دُونه.

ولما وجد القومُ أن الرسول - ﷺ - ماض على نهجه، وأن أبا طالب لم يزْوَرّ عنه؛ توجّه رجالٌ من أشراف قريش إليه، راجين منه أن يَكُفَّ ابنَ أخيه عنهم، أو يُخلِّيَ بينهم وبينه؛ فأحسن أبو طالب القول لهم، وردَّهم ردًّا جميلا، واستمر الرسول - ﷺ - على ما هو عليه؛ مظهرًا لدين الله؛ وداعيًا إليه[1].

ثم لمّا اشتدّ أمرُ الرسول - ﷺ - واضطرمت حملاتُه القويةُ ضِدَّهم، ثقل الأمر عليهم؛ فتوجّه وَفدٌ منهم مرة ثانية إلى أبي طالب، قائلين له: «يا أبا طالب؛ إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنّا قد استنهيْناك من ابن أخيك فلم تنهَهُ عنّا، وإنا والله لاَ نَصْبُر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعَيْبِ آلهتِنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازِلَه وإيّاك في ذلك، حتى يهْلكَ أَحدُ الفريقين... ثم انصرفوا عنه. فعَظُم علَى أبي طالب فراقُ قومِه وعداوتُهم، ولم يَطِبْ نفسًا بإسلام رسول الله - ﷺ - لهم ولا خِذْلانه... وبعث إلى رسول الله - ﷺ - فقال له: يا ابن أخي؛ إنّ قومَك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا... فابْقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيقُ... فظن رسول الله - ﷺ - أنه قد بَدا لعمَّه فيه بَداء، وأنه خاذِلُه ومُسْلِمُه، وأنه قد ضَعُفَ عن

---

١- انظر (السيرة النبوية: ١/٢٦٤ - ٢٦٥)، و(الكامل في التاريخ: ٢/٦٣ - ٦٤).

نُصرته والقيام معه.... فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (بلسانٍ طُلَقٍ ذُلَقٍ): «يا عمُّ؛ والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهرَه الله، أو أَهْلَكَ فيه، ما تركتهُ... ثم اسْتَعْبَرَ رسول الله ـ ﷺ ـ فبكى، ثم قام؛ فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي ... فأقبل عليه... فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أَحْبَبْتَ، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبدًا»[1].

ثم أنشد مادحًا الرسول ـ ﷺ ـ (مُسَكِّنًا جأشه مُعلنًا حمايته، مُعْليًا شأنَ دعوته، حاثًّا له على المُضيّ فيها بثقةٍ وأمان، فقال[2] (الكامل):

والله لن يصلوا إليك بجمعهمْ
حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دَفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ
وابْشرْ بذاك، وقَرَّ منه عيونا
ودَعَوتني، وزعمتَ أنك ناصحٌ
ولقد صَدَقْتَ، وكنتَ ثَمَّ أمينا
لولا الملامةُ أو حِذارِي سُبَّةً
لوجدْتَني سمْحًا بذاك مُبينا

كما يخاطب النبيّ ـ ﷺ ـ مُسكِّنًا جأْشَه؛ دافعًا إياه إلى المُضِيِّ في دعوته، مُقوّيًا عَضُده؛ مُعلِنًا فداءه بنفسه، فيقول[3] (البسيط):

---

١- (السيرة النبوية: ١/٢٦٥ ـ ٢٦٦) وانظر (الكامل في التاريخ: ٢/٦٤) (وتاريخ الطبري: ٢/٣٢٣)، و(البداية والنهاية: ٣/٤٢)، و(حياة الصحابة /٢٤٣)، و(حياة محمد/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

٢- (الديوان / ٩١) والمقطعة أربعة أبيات.

٣- (الديوان / ٣١) والشاهد بيتان، وقوله: أيّدٍ تصول: أي تثب وترفع السلاح. ولا سلقٌ بأصوات: أي المخاطبة بما يكره.

لا يمنعِنَّكَ من حقٍّ تقومُ به
أيْدٍ تصولُ ولا سَلْقٌ بأصواتِ

فإنّ كفَّكَ كفِّي إن مُنيتَ بهم
ودون نفسِكَ نفسي في المُلّماتِ

وواضح أن أبا طالب قد اتخذ من شعره - منذ بداية هذه المرحلة - قوسًا يرمي عنها سهامًا رائشةً مُوجَّهةً إلى كل مَنْ نَدَّد بابن أخيه أو هدّده؛ (ورُبَّ قوْل أشدَّ من صوْل)؛ فها هو ذا يقول مُطريًا الرسول - ﷺ - طِيبَ محتدِه، وسموَّ شرفِه، وعُلوَّ قدرِه، وسيادته على قومه، وصدقَ قوله مذ كان طفلا. فخورًا بصنيع جدّه عمرو (وهو هاشم بن عبد مناف)، مُعلنًا حمايتَه للرسول - ﷺ - مُهدِّدًا عدوَّه بالويل والثبور[1] (مجزوء الكامل):

أنت النبيُّ محمّدُ
قَرْمٌ أغَرُّ مُسوَّدُ

لِمُسوَّدين أكارم
طابوا وطابَ المولدُ

نِعم الأَرومةُ أصْلُها
عمرو الخِضمُّ الأوْحَدُ

هشم الرَّبيكةَ في الجِفا
نِ وعيْشُ مكةَ أنكدُ

فجرتْ بذلك سُنّةٌ
فيها الخبيزةُ تُثردُ

١- (الديوان / ٣٥-٣٦) والقصيدة اثنا عشر بيتًا.

ولـنـا الـسِّـقـايـةُ لـلـحـجِـيـ
ـــجِ بـهـا يُمـــاثُ الـعُـنْـجـدُ[1]

أَنَّــــى تُـضَـــامُ ولم أَمُـــتْ
وأنـــا الـشّــجـاعُ الـعِـرْبِـدُ[2]

وبـــطـــاحُ مــكّـــةَ لا يُـــرى
فـــيـــهـا نجـــيـــعٌ أســـــــودُ

وبـــنـــو أبـــيـــك كـأنـهـم
أُســــــدُ الـــعـرِيــنِ تــوقَّــدُ

ولــقــد عــهـدتُـك صــادقًـا
في الـــقـــول لا تـــتــزيّــدُ

مـــازلـــتَ تـنـطـقُ بـالـصَّـوا
بِ وأنـــــت طـــفـــلٌ أمـــــردُ

ومن هذا الموقف الصُّلْب والقرار الحاسم؛ وبتلك القذائف المُوجَّهةِ من خِزانة أبي طالب الشعرية؛ تأكّدت قريشٌ أنه مُصرٌّ على حماية الرسول ﷺ مُجْمِعٌ على فراقهم في ذلك وعداوتِهم؛ حينئذ تحرّك وَفدٌ من قريش للمرة الثالثة، ومعهم عُمارة بن الوليد بن المغيرة؛ «فقالوا...: يا أبا طالب؛ هذا عُمارةُ بنُ الوليد أنْهدُ فَتًى في قريش وأجملُه، فخُذْه فَلَكَ عَقْلُه ونَصْرُه، واتّخِذْه ولدًا فهو لك، وأَسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دِينَك ودينَ آبائِك، وفرّق جماعةَ قومِك، وسفّه أحلامَهم، فَنَقْتُلَه؛ فإنما هو رجل برجل؛

١- يماث العنجد: أي يُذاب الزبيب.

٢- العِربد: الحيّة. تُضْربُ ـ مثلا ـ للرجل المنيع، والمفكر الداهي في الأمور. انظر: (مجمع الأمثال: ٤٣١/١)، و(لسان العرب / حيا) و(العقد الفريد: ٩٣/٣).

هذا، وقوله في نهاية القصيدة: (وأنت طفل أمرد): أي لم تنبت له لحية.

فقال: واللّه لبئس ما تَسُومونَني! أتُعطونني ابْنَكُم أغْذُوه لكم، وأُعطيكم ابني تقتلونه! هذا واللّه ما لا يكون أبـدًا... فقال المُطعَمُ بنُ عديٍّ بنِ نوفل بن عبد مناف بن قُصيّ: واللّه يا أبا طالب لقد أنصفَك قومُك، وجَهدوا على التخلّص مما تكرهه، فما أراك تُريد أن تقبلَ منهم شيئًا؛ فقال أبو طالب للمُطْعَم: واللّه ما أنصفوني، ولكنّك قد أجْمعتَ خِذْلاني ومُظاهَرةَ القوم عليّ، فاصنع ما بَدا لك... فَحَقِب الأمر (أي زاد واشتد)، وحَميتْ الحربُ، وتنابَذَ القوم، وبادَى بعضُهم بعضا»[1].

ومن ثمّ انبرى أبو طالب مُوَجِّهًا سهام شعره إلى نحورهم، معرِّضًا بقومه مُسفِّهًا عَرْضَهم، مُنكرًا بغْيَهم، مُنتصرًا باللّه عليهم؛ وذلك في قوله[2] (الطويل):

يقولون لي: دَعْ نصرَ مَنْ جاء بالهدى
وغـالـبْ لـنـا غِـلَّابَ كُـلِّ مُـغـالِـبِ

وسلّمْ إلينا أحمدًا واكْفُلَنْ لنا
بُنَـيًّا ، ولا تَحْـفِلْ بقـول المُعـاتِب

فقلتُ لهم: اللّهُ ربِّي وناصري
علـى كـلِّ بـاغٍ مـن لُـؤَيِّ بـن غـالـبِ

١- (السيرة النبوية: ١/٢٦٦ ـ ٢٦٧)، وانظر كذلك (طبقات ابن مسعد ١/٢٠٢)، و(تاريخ الطبري: ٢/٣٢٧)، و(البداية والنهاية: ٣/٤٨)، و(حياة محمد/ ١٣٠)، وغيرها في هذه المناسبة.
٢- (الديوان / ٢٣)، والمقطّعةُ ثلاثة أبيات. ومعنى قوله: (وغالب...)، أي شمرٌ عن ساعد الجِدِّ لمناصرتنا بكل ما أوتيت من عزم وقوة.

ثم يلتفت بشعره إلى المُطْعَم بنِ عَديّ، أو كما يقول ابن هشام[1] ـ وقد اتفق ابْن كَثِيرٍ معه ونقل عنه، وإن اختلفا في عدد الأبيات وترتيب نهايتها ـ[2]:

«فقال أبو طالب عند ذلك (أي عندما سمع من المطعم ما قاله)، يعرّض بالمُطْعَم بنِ عَديّ، وَيعمُّ مَنْ خذله من بني عبد مناف، ومَنْ عاداه من قبائل قريش، ويذكر ما سألوه، وما تباعدَ من أمرهم».

وأبو طالب في مقدمة قصيدته يعرّض بهؤلاء القوم، ويحقّرُ من شأنهم مُوضّحًا أن بَكْرًا (من الإبل)، خُورًا (ضعيفا)، حَبْحابًا (قصيرًا)، صغيرًا كالوَبْر (دُوَيبة على شكل هرّة)،... هي أنفع لي منكم، وأجدى من حياطتكم وصيانتكم لي؛ فيقول[3] (الطويل):

ألا قُلْ لعمرٍو والوليد ومُطْعَم
ألا ليتَ حَظّي من حياطتكم بَكرُ

من الخُور حَبْحابٌ كثيرٌ رُغَاؤُهُ
يُرشُّ على الحاذَيْن من بَوْله قَطْرُ

تخلّفَ خلْفَ الوَرْد ليس بلاحقٍ
إذا ما علا الفَيْفاءَ قيل له وَبْرُ

ثم يقذف أخويه عبد شمس ونوفلا، ويرميهما بالمَيْن، والجُبْن، والحسد، والحقد، والغدر، والتحامل، والتدليس، فيقول:

---

١- (السيرة: ١/٢٦٧ـ٢٦٨).

٢- (البداية والنهاية: ٣/٤٨ـ٤٩).

٣- (الديوان/ ٤٧ : ٤٩) والقصيدة (١٦) بيتا. علما أنني سألتزم بما أورده ابن هشام وابن كثير في صدر القصيدة، ثم ألتزم بترتيب الديوان. بداية من البيت الثالث فيه، والبيت الثاني فيما أورده هنا. وقوله: (الورد): «صفة للجواد بين الأشقر والكميت». والفيفاء: المفازة الجدباء لا شجر فيها ولا ماء.

أرى أخـوَيْـنـا مـن أبيـنـا وأُمِّـنـا

إذا سُـئلا قـالا : إلى غيرنـا الأمـرُ

بلى لهما أمرٌ ولكن تَجَرْجَما كما

جُرْجِمَتْ من رأسِ ذي العلق الصّخرُ[1]

أخصُّ خصوصًا عبدَ شمس ونوفلاً

هـمـا نَـبـذانَـا مـثـلَ مـا نُـبـذَ الجـمْـرُ

ومـا ذاك إلا سُـؤْدُدٌ خصّنا به

إلـهُ الـعـبـادِ واصـطـفـانـا لـه الفخْرُ

هما أغْـمَـزَا للقوم في أخَوَيهما

فقد أصبحا منهم أكفُّـهـمـا صِفْرُ

هما أَشركا في المجد مَنْ لا أباله

مـن الـنـاس إلاَّ أن يُـرَسَّ لـه ذكـرُ

رجـالٌ تمـالَـوْا حاسدين وبِغْضَةً

لأهـل الـعُـلا فَـبـيْـنَـهـمْ أَبـدًا وِتـرْ

ولـيـدٌ أبــوه كـان عـبْـدًا لجِـدِّنـا

إلى عِـلْجَـةٍ زَرْقـاءَ جـال بها السِّحر

وبعد أن ساق أبو طالب شاهدًا على أنهما (أشركا في المجد من لا أباله) بذكر الزنيم الوليد بن المغيرة والحطّ من شأنه - يلتفت إلى بعض بطون قريش (تَيْم، ومخزوم، وزُهرة)؛ هؤلاء الذين كان يتوقع منهم المؤازة والنُّصرةَ؛ يلتفت إليهم فيدْمَغهم بالحقد، والبغض، ويرميهم بالغدر،

١- تجرجم انحدر انحدار الضخرة من (ذي علق) وهو جبل في ديار بني أسد.

والجهل والسّفه، إلى غير ذلك من الخصال الدنيئة الرديئة التي تُودي بهم، وتُؤدي إلى حَتْفهم كالجَفْرِ (العنزة) الباحثة بظَلْفها عن حتفها، فيقول:

وتَيْمٍ ومخـزومٍ وزُهْـرةَ منهُمُ
وكانوا بِنا أولى إذا بُغيَ النّصرُ

وزُهْـرَةَ كانوا أوليائي وناصري
وأنتمْ إذا تُدْعَوْن في سمْعكمْ وَقْرُ

فقد سَفَهتْ أخلاقُهمْ وعقولُهم
وكانوا كَجَفْرٍ بئسما صَنعتْ جَفْرُ

ثم يختم قصيدته مهدِّدًا لهم، معلنًا استمرار حفظه وحمايته لمحمد ﷺ آليا على نفسه إن العداوة ستظل قائمةً بينه وبينهم ما بقي من نسل بني هاشمٍ شَفُر (أحدٌ): يقول:

فـوالله لا تَنْفَكُّ منا عـداوةٌ
ولا منْهُمُ ما دام في نسلنا شَفْرُ

## المبحث الثامن

## موقف قريش بعد كَسْرَةِ وفدهم الثالث إلى أبي طالب وأثره في شعره

**-(تعذيب كلِّ قبيلة مَنْ فيها من المسلمين)**

يُطلعنا الطبريّ على خيوط هذا الموقف في قوله[1]:

«ثم إن قريشًا تذامروا على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله -ﷺ- الذين أسلموا معه؛ فوثبتْ كلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها من المسلمين يُعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه رسوله منهم بعمه أبي طالب؛ وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من مَنْع رسول اللّه - ﷺ - والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدَّفَع عن رسول اللّه - ﷺ - إلا ما كان من أبي لهب؛ فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جِدّهم معه، وحَدَبهم عليه، جعلَ يمدحُهم، ويذكرُ فضلَ رسول اللّه -ﷺ- فيهم، ومكانهَ منهم ليشدّ لهم رأيهم»؛ «وليَحدَبُوا معه على أمره»[2]، فقال[3]: (الطويل)

إذا اجْتمعَت يومًا قُريشٌ لمفْخرٍ
فعبدُ منافٍ سِرُّها وصمِيمُها

فإن حُصِّلَتْ أشرافُ عبدِ منافِها
ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

---

١- (تاريخ الطبري: ٢/٣٢٧ ـ ٣٢٨).

٢- (السيرة : ١/٢٦٨ ـ ٢٦٩)، وذكر من القصيدة الآتية (٧) أبيات..

٣-(الديوان / ٨٢ ـ ٨٣) والقصيدة تسعة أبيات. وقوله: سِرُّها وصميمها: خالصها. والظلامة: الظلم. ثنَوْا: أمالوا. أحْجارها: أكنافها. انتعش العود الذَّواء: اخضر العودُ الذي ذَبُل. الأروم: الأصل. لهم صِرْمة: القطعة من الإبل. القَروم: سادة القوم وأشرافهم.

فـإن فَـخُـرتْ يـومًـا فـإن محمدًا

هـو المصطفى مَـنْ سِـرُّهـا وكرِيمُها

تَـداعَـتْ قريشٌ : غثُّها وسمينُها

علينا فلم تظْفرْ وطـاشَـتْ حُلومُها

وكُـنّــا قـديمًــا لا نُـقِـرُّ ظُـلامـةً

إذا مـا ثـنَـوْا صُعْرَ الخـدودِ نُقيمُها

ونَـحْـمي حِماها كلَّ يـوم كريهةٍ

ونضربُ عن أحجارها مَـنْ يَرومُها

بنا انتعش العودُ الـذَّواءُ، وإنما

بـأكنـافنـا تـنْـدَى وتَـنْـمَـى أُرومُـهـا

هُمُ السادةُ الأعلوْن في كلِّ حالةٍ

لـهمْ صِـرمـةٌ لا يُـسـتطـاعُ قُرومها

يـديـنُ لـهـم كـلُّ الـبـرَّيـةِ طاعةً

ويُـكـرمْـهُـمُ مِـلأَرِض عندي أديمُها.

- (محاولة قُريش قتْل الرسول ـ ﷺ ـ والتّخلصّ منه)

لقد تتبّع ابن سعد ـ وغيره ـ الأحداثَ التي انبثقت عن رفض أبي طالب عرض قريش، وعدم قبوله عمارة بنَ الوليد؛ تقول الرواية[1]:

«قالوا : فأرسل إليه فلْنُعْطِه النَّصَف؛ فأرسل إليه أبو طالب... فقال: يا ابن أخي؛ هؤلاء عمومتُك وأشرافُ قومِك وقد أرادوا ينصفونك؛ فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: قولوا أسمعْ، قالوا: تدعْنا وآلهتنا، وندعَك وإلهك. قال أبو طالب: قد أنصفك القومُ فاقبل منهم؛ فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: أرَأيْتم إن أعْطيتُكم هذه هل أنتم مُعْطيِّ كلمةً إن أنتمْ تكلمتُمْ بها ملكتم بها العرَب، ودانت لكم بها العجم؟ فقال أبو جهل: إنّ هذه لَكلمةٌ مُرْبحةٌ، نعم وأبيك لنقولنّها وعشرَ أمثالها، قال: قولوا لا إله إلاّ اللّه؛ فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصْبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُراد... وقالوا: لا نعودُ إليه أبدًا، وما خيرٌ من أن يُغتال محمدٌ.

فلما كان مساء تلك اللّيلة فُقِد رسول اللّه ـ ﷺ ـ وجاء أبو طالب وعمومتُه إلى منزله فلم يجدوه؛ فجمع فتيانا من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال: ليأخذ كلٌّ واحدٍ منكم حَديدةً صارِمةً ثم ليتّبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كلُّ فتىً منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظليّة يعني أبا جهل، فإنه لم يغب عن شرٍّ إن كان محمدٌ قد قتل، فقال الفتيان: نفعل...» وأخيرا فوجيء أبو طالب أنّ النبي ـ ﷺ ـ كان في بيت عند الصفا يتحدث مع أصحابه، وهو بخير.»فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ـ ﷺ ـ فأخذ بيده، فوقف به على أندية قريش، ومعه الفتيان الهاشِميّون والمُطّلبيون، فقال:

يا معشر قريش، هل تدرون ما هممتُ به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبرَ، وقال للفتيان: اكْشِفُوا عمَّا في أيديكم، فكشفوا، فإذا كلُّ رجلٍ منهم معه

---

١- (الطبقات الكبرى: ١/٢٠٢ ـ ٢٠٣).

حَديدةٌ صارمةٌ، فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيْتُ منكم أحدًا حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم، وكان أشدَّهم انكسارًا أبو جهل».

ولم يكتف أبو طالب بما صنع، بل كان لشعره دورُه الفاعل الفاتك في تهديد القوم وزَجْرهم؛ ودورُه النَّديّ الشّذيّ العَطِر في إطراء الرسول - ﷺ - وبيان منزلته عنده؛ ودورُه الجهيريُّ الصارخُ في الإعلان عن مؤازرته له، وعنايته به لَهِجًا بذكره، كَلِفًا بحبّه؛ وكيف لا، ومحمد - ﷺ - في الذروة من بني قُصَيّ، وهو القمر الذي يُبيدُ الظلماتِ بنوره الوضاء؟!، حيث يقول[1] (الوافر):

ألا أبلغ قريشًا حيثُ حَلَّتْ
وكلُّ سرائرٍ منها غُرورُ

فإنيّ والضّوابحِ غَادياتٍ
وما تتلو السَّفاسِرَةُ الشّهورُ[2]

لآلِ محمدٍ راعٍ حفيظٌ
وِدادُ الصّدرِ منّي والضّميرُ

فلستُ بقاطعٍ رَحْمي ووُلْدي
ولو جَرَّتْ مظالِمَها الجَرورُ

أيا مَنْ جَمْعُهم أفْناءُ فِهْرٍ
لقتلِ محمدٍ والأمْرُ زُورُ

---

١- (الديوان / ٥٠) والقصيدة تسعة أبيات.

٢- الضوابح : جمع «الضابحة وهي الفرس التي ترسل صوتا حين عدْوها ليس بالصهيل ولا بالحمحمة. السَّفاسرة: مفردها السفير، وهو العالم بالأصوات والقيم بالأمر المصلح له، والكلمة فارسية. الشّهور: العلماء، مفردها شهر» نقلا عن الحاشية، ص/٥٠ ، من الديون.

فلا وأبيكَ لا ظفرتْ قريشٌ
ولا لقيَتْ رَشادًا إذ تُشيرُ

بني آخي ونَوْطُ قُلَيْبِ منّي
وأبْيَضُ ماؤُهُ غَدَقٌ كثيرُ

ويَشْربُ بعدَه الوِلدانُ رِيًّا
وأحمدُ (ما) تضمَّنَه القبورُ

أيا ابنَ الأنْفِ أنْفِ بني قُصَيٍّ
كأنّ جبينَكَ القمرُ المُنيرُ.

هذا، وفي قصيدة أخرى يعاتب أبو طالب إخوانه وأبناء عمومته لمظاهرتهم قوما ضالين مضلّين، كاذبين متهمين في عقولهم ونهْجهم؛ إذ يرون أن في قتلهم محمدًا - ﷺ - إذلالا لبني هاشم «لُعنوا بما قالوا». ثم يُحقِّر من شأن هؤلاء القوم معلنًا، آليا على نفسه، مُكثِّفًا قسمه؛ إن ما ينطقون به هُراءٌ، وما يروْنه أضغاث أحلام، وما يرجُونه هو كلُّ المُحال، اللهم إذا تيسَّر لهم أن ينقلوا بجمعهم جبل (يذْبل) من موطنه، «وما هم بفاعِليه».

ثم ينذرهم حربًا ضروسًا «لا تُبقي ولا تذر»؛ بسواعد أبطال بني هاشم الذين هم سادة السادات، وخِيرَةُ ربِّ الناس، والشُّمُّ البواسلُ الذين يحمون الرسول - ﷺ - بأرواحهم القوية، وأفراسهم الجيّدة، ورماحهم المتينة النافذة، ودروعهم السابغة اللينة، وسيوفهم الماضية القاطعة؛ وذلك في

قوله [١] (الطويل):

أَلاَ أبلغا عنّي لُؤَيًّا رسالةً
بحقٍّ، وما تُغني رسالةُ مُرْسِلِ
بني عمِّنا الأدْنينَ تيمًا نَخُصُّهم
وإخوانَنا من عبدِ شمسٍ ونَوْفَلِ
أظَاهَرْتُمُ قومًا علينا أظِنَّةً
وأمْرَ غَويٍّ من غُواةٍ وجُهَّلِ؟
يقولون: إنّا إن قتلْنا محمَّدا
أقَرَّتْ نواصي هاشمٍ بالتّذلُّلِ
كذْبْتُمْ وبيتِ اللهِ يُثْلَمُ رُكنُه
ومكّةَ والإِشعارِ في كل مَعْمَلِ
وبالحجِ أو بالنِّيب تَدْمَي نُحورُها
بمدْماهُ والرُّكْنِ العتيقِ المُقبَّل

---

١-(الديوان/ ٧٥ : ٧٧) والقصيدة ثمانية عشر بيتا. .

وقوله في القصيدة: (وما تغني رسالة مرسل)؛ أي لا يؤثر الكلام فيهم ولا ينفع الخطاب معهم. وقوله: (أظِنّة)؛ أي متهمون «ويعني بهم بني بكر بن عبد مناة»؛ كما جاء في الحاشية /٣ من ص/٧٦ من الديوان.

وقوله : (متى ما نمرّها): متى ما نمسح ضرعها. وقوله: (نجالحْ)؛ أي نكاشف ونجاهر بها. وقوله: (رأس عيطاء)؛ أي طويلة العنق. وقوله: (عيطل) طويلة العنق كذلك في حسن وجمال. وقوله: (العرانين) أي السادة الأشراف. وقوله: (آخرًا بعد أول)؛ أي كلهم. وقوله: (وكل جرور الذيل)؛ أي كل درع طويلة. وقوله: (زغف مفاضة)؛ أي الدرع الواسة الطويلة. وقوله: (دلاص)، أي الدّرْع اللينة البراقة. وقوله: (بأيمان شمٍّ من ذوائب هاشم)؛ بأيمان الكرماء ذوي الأنفة الكبرى من أعالي هاشم. وقوله: (مغاويل بالأخطار) أي يلقون أنفسهم في المهالك من أجل شرفهم فالأخطار: جمع الخطر، وهو الشرف.

تنالونَه أوْ تَعطفوا دُون نَيْلــِـهِ
صـوارمُ تَفْـرِي كلَّ عـظْـمٍ ومِفْصَلِ

وتدعـوا بـأرحـامٍ وأنـتـمْ ظلمتُمُ
مَـصـاليـتَ في يـومٍ أغـرَّ مُـحَـجَّـلِ

فمهلاً ولمَّـا تُنْتجُ الحـربُ بَكْرَها
بِـيَـتْنٍ تمـامٍ أو بـآخَـرَ مُـعْـجِـلِ(١)

فـإنَّـا متى مـا نَمْـرِهـا بسيوفنا
نُجـالـحْ فَـنـعْـرُكْ مَـنْ نـشـاءُ بكَلكَلِ

وتَلْقَوْا ربيعَ الأَبْطَحَيْن محمَّدا
على رَبْـوةٍ في رأْسِ عَيْطاءَ عَيْطَلِ

وتـأوي إليه هاشمٌ، إنَّ هاشمًا
عَـرانــينُ كـعـبٍ آخِــرًا بـعـدَ أوّلِ

فـإن كُنـتمُ تـرْجـون قتْلَ محمدٍ
فـرُومـوا بمـا جـمَّـعْـتُـمُ نـقْـلَ يَـذْبُـلِ

فـإنّـا سـنحمْيه بـكلِّ طِـمَّـرةٍ
وذي مَـيْـعـةٍ نَـهْـدِ المـراكـلِ هيْكَلِ

وكــلِّ رُدَيْـنــيٍّ ظِـمــاءٍ كُـعـوُبـهُ
وعَضْبٍ كإيماض الغَمامةِ مِقْصَلِ

---

١- في الديوان / ٧٦: (ببين تِمامٌ) وقد اخترت رواية (ديوان شيخ الأباطح/ ص/ ٢٧)، «واليتْن. كما جاء في الحاشية / ٣، ثمة: بفتح الياء وسكون التاء أن تخرُجَ رِجْلا المولود قبْل رأسه ويديْه في الولادة».

وكلِّ جَـرورِ الذَّيْلِ زَغْـفٍ مُفاضَةٍ

دِلاصٍ كَـهَـزْهـازِ الـغـديـرِ المُسَلْسَلِ

بـأيمـان شُـمٍّ مـن ذوائـبِ هـاشـم

مـغـاويـلُ بـالأخـطـار في كـلِّ محْـفَـلِ

هُمُ سـادةُ السـاداتِ في كلِّ موطنٍ

وخِـيـرَةُ ربِّ الـنـاسِ في كـلِّ مُعْضِلِ

وفي الغرض نفسه يقول أبو طالب (الطويل) [1] مُسفِّهًا أحلام قومه لتفكيرهم في قتل النبي -ﷺ- والخلاص منه؛ ناعيًا عليهم بغيهَم وعُقوقَهم وتآزرهم على امتهانه وتكذيبه؛ «وقد خاب من افتري»؛ مُنبِّهًا إياهم على صدقه وصحّة نُبُوَّته؛ مشيدًا بعلوّ قدره وسموّ منزلته؛ «فهو نسيجُ وحده»؛ مُهدِّدًا قريشًا بحرب مُبيدةٍ مُبيرة، وَقُودُها رؤساؤهم وجنودهم؛ حرب يُضرِمُها أُسودُ بني هاشم الذين عقدوا نيّتهم على مؤازرة الرسول -ﷺ- ووضعوا أرواحهم على أكفّهم فداءً له وحمايةً لشخصه؛ وقد (أعْذَر مَنْ أنْذر)؛ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (القصص: ١٥)

ألا مَـنْ لـهـمٍّ آخـرَ الـلـيـلِ مُعْتِمِ

طَـواني، وأُخـرى الـنَّـجْـمِ لمَّـا تَقَحَّمِ

---

١- (الديوان / ٨٥ : ٨٧) والقصيدة ستَّة عشر بيتا. وقوله فيها: (لما تقحمَّ)؛ أي تتقحم ، بمعنى لما تغيّب. وقوله في البيت الثالث: (بظلم ومن لا يتقي الظلم يظلم) من قول زهير بن أبي سلمى (شعره/٢٧):

ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومَنْ لا يظلمُ الناس يُظْلَم

وقوله: (على فائل) أي ضعيف. وقوله: (خطةً) أي أمرًا.

وقوله: (بالوشيح المقوّم) شجر الرماح المعدّل المثقّف. وقوله: (سمر العوالي)؛ أي رؤوس الرماح المرتفعة. (أسْد الزارتين) هي الزأرتين أي الأجمتين. (المعلم): من يعلن عن نفسه بإشارة في الحرب لشجاعته وضراوته. (إعلام معلم): تهديد مرهب، وإرهاب فاتك. (تدّعي بالتندّم) تظهر أسفها وتنادي به.

طـواني وقـد نـامتْ عيـونٌ كثيرةٌ
وسـامِـرُ أُخــرى قـاعِـدٌ لم يُـنَـوِّمِ

لأحـلام قـومٍ قد أرادوا محمَّدًا
بظُلْمٍ (ومَـنْ لا يتقي الظُلمَ يُظْلَم)

سَعَوْا سَفهًا واقْتادهم سُوءُ أمرِهم
على فـائلٍ مـن أمـرهـم غـيرُ مُحْكَمِ

رجـاءَ أمــورٍ لم ينـالوا نِظامَها
وإن نَـشَـدوا في كـلِّ بَـدْوٍ ومَـوْسِـمِ

تُـرجَّـون منَّـاخُـطَّـةً دُونَ نَيْلها
ضِــرابٌ وطـعْـنٌ بـالـوشـيـح المُـقـوَّم

تُـرجَّـون أن نسْخَى بقتل محمدٍ
ولم تَخْتضِبْ سُمْرُ العوالي من الدَّم

كذبْتُمْ وبيتِ اللّه حتى تعرّفوا
جَماجِمَ تُلْقَى بالحطيـم وزَمْـزم

وتُقطعَ أرحامٌ وتَنْســي حَليلـةٌ
حَليـلاً ويُغْشَـى مَحْــرَمٌ بعد مَحْـرَم

وينْهضَ قـومٌ في الحديد إليكُمُ
يـذُبُّـون عـن أحسـابهـم كُـلَّ مُجْـرِم

وظُلْمُ نَبِيٍّ جاء يدعو إلى الهُدى
وأمْـرٌ أتـى من عند ذي العرشِ قيِّمِ

هُـمُ الأُسْـدُ أُسْدُ الزَّارتيْنِ إذا غـدتْ
على حَنَقٍ لـم يُخْشَ إعــلامُ مُعْلِمِ

فيالَبَني فِهْرٍ أَفيقُوا، ولم تَقُمْ
نـوائـحُ قتْلـى تـدَّعـي بـالـتَّـنَـدُّمِ

على ما مضى من بَغيكُمْ وعُقوقِكم
وغِشْيانِكم من أمْـرنـا كـلَّ مَـأْثِـمَ

فـلا تحْسِبونا مُسْلميهِ ، ومثْلُه
إذا كـان في قـومٍ فليس بمُسْلَمِ

فـهـذي مـعـاذيـرٌ وتـقْـدِمـةٌ لكمْ
لكيلا تكونَ الحـربُ قبل التقدُّمِ

هـذا، ويحدثنا ابنُ إسحاق عمَّا توعدّ به أبو جهل الرسول - ﷺ - ، فيقول[1]:

«قال أبو جهل: يا معشر قريش؛ إن محمدًا قد أبى إلاَّ ما تروْن من عَيْب دِيننا، وشتم آبائِنا... وإني أُعاهد اللّه لأجْلِسنَّ له غدًا بحَجَرٍ ما أُطيقُ حَمْلَه... فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسَه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فلْيصنَعْ بعد ذلك بنو عبد مناف مابَدا لهم.

قالوا: واللّه لا نُسْلِمُكَ لشيءٍ أبدًا، فامْضِ لما تُريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول اللّه - ﷺ - ينتظره. وغدا رسول اللّه - ﷺ - كما كان يغدو... فقام ... يُصلّي، وقد غدت قريشٌ فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سجد رسول

---

١- (السيرة: ١/٢٩٨-٢٩٩).

الله - ﷺ - احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع مُنْهزِمًا مُنتقعًا لونُه مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجرَ من يده. وقامت إليه رجالُ قريش، فقالوا له: مالَك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ منه، عرض لي دونه فحْلٌ من الإبل... فهمَّ بي أن يأكلني.

قال ابنُ إسحاق: فذُكر أن رسول الله - ﷺ - قال: ذاك جبريلُ - عليه السلام - لو دنا لأخذه». ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

ومن ثَمَّ يوظف أبو طالب هذا الحدث في قصيدته؛ محذِّرًا فيها قومه إذا تمادَوْا في غيّهم؛ بما حل بقوم عادٍ وثمود؛ مذكّرًا إياهم بموقف قِدار الأزرق من ناقة ذي العرش العظيم، ناقةٍ صالح - عليه السلام - حين عقرها، فكان هلاكهم بسببها، ومحقِّرًا من شأن أبي جهل وكيده للنبي - ﷺ - ؛ راميًا إيّاه بالجور والحُمْق والضلال؛ «وقد خاب مَنْ حمل ظلما» ؛ ومُطْريا في الرسول - ﷺ - صبرَه وصدقَه وتقواه، فيقول[1] (المتقارب):

أفيقوا بني غالبٍ وانْتَهوا
عن البَغْيِ في بعض ذا المَنْطِقِ

وإلاّ فإنّي إذًا خائفٌ
بَوائقَ في داركم تلتقي

تكونُ لغيركُمُ عِبْرَةً
وربِّ المغاربِ والمشْرق

١- (الديوان/ ٨٥) والقصيدة أحد عشر بيتًا. وقوله في القصيدة: (بوائق في داركم تلتقي) ؛ أي خصومات ودواهٍ. وقوله: (... صرصر)، أي رياح شديدة في هبوبها، قارسة في بردها.

كما نال مَنْ كان مِن قبلكمْ
ثَمودٌ وعادٌ، فمن ذا بقي؟

فحلَّ عليهم بها سَخْطَةٌ
من الله في ضَرْبةِ الأزْرق

غَداةَ أتتْهمْ بها صَرْصَرٌ
وناقَةُ ذي العرش إذْ تَسْتَقِي

غَداةَ يُعِضُّ بعُرقوبها
حُسامًا من الهند ذا رَوْنَق

وأعْجبُ من ذاك من أمركم
عَجائبُ في الحجر المُلْصَقِ

بكفِّ الذي قام مَنْ حَيْنُه
إلى الصابر الصادقِ المتّقي

فأيْبَسهُ اللهُ في كفِّه
على رُغْمِه الجائرِ الأحْمق

أُحَيْمِقُ مخْزومِكم إذْ غوى
لِغَيِّ الغُواةِ ولم يَصْدُقِ

هذا، ولحرص أبي طالب الشديد على الرسول - ﷺ - وخوفه وجزعه عليه من الأخطار المُحْدِقة به، والأحقاد المتّقدة ضِدّه، والبطون الكثيرة التي تتألب عليه وتكيد له - انفجرت شاعريته بالمزيد من النصائح والعديد من الوصايا.

فها هو ذا يخاطب أخاه حمزة بن عبد المطلب، حين أسلم[1] ـ وكان يكنى أبا يعلى ـ مُوصيًا إياه بالثبات على دين الإسلام ونشره؛ وحِياطةِ الرسول ﷺ ونصرِه؛ وإعلان إسلامه أمام قريش قاطبةً، وإعلامهم بصدق الرسول ﷺ ودَرْء فِرْية السِّحرِ عنه؛ فيقول[2] (الطويل):

صَـبْرًا أبـا يَعْلَى على ديـن أحمدٍ
وكُـنْ مُظهـرًا للدين وُفّـقْـتَ صابرا

وحُطْ مَنْ أتى بالحقِ من عندَ رَبِّهِ
بصـدقٍ وعـزمٍ لا تكنْ حَـمزَ كافرا

فقد سَـرَّني إذْ قُلْـتَ إنـك مؤمنٌ
فكـن لـرسـول الله في الله ناصرا

ونــادِ قـريشًـا بـالـذي قـد أتَـيْـتَـهُ
جهـارًا وقـل: ما كـان أحـمدُ سـاحرَا.

بل أكثر من هذا نراه يدعو وجوه القوم من كنانة إلى الإسلام، فيقول[3] (الخفيف):

قـل لمـن كـان مـن كـنـانـةَ في العِزِّ
وأهــــلِ الـنّــدى وأهــــلِ الـفَـعـالِ

قـد أتـاكـمْ مـن المـلـيـك رسـولٌ
فـاقـبـلـوه بـصـالـح الأعــمـال

---

١- راجع في إسلام حمزة (السيرة النبوية: ١/٢٩١ ـ ٢٩٢)، و(الكامل في التاريخ: ٢/٨٣)، و(مجمع الزوائد: ٩/٢٦٦ : ٢٦٨)، و(حياة محمد/ ١٣٤).

٢- (الديوان / ٤٣) والمقطعة أربعة أبيات.

٣- (الديوان / ٦٢) والمقطعة ثلاثة أبيات.

فاقبلوا أحـمـدًا؛ فـإنّ مـن اللّه

رداءً عـلـيـه غـيـرَ مُـذال

وهاهوذا أيضا يجمع بني هاشم وأحلافهم، حينما «بلغه أن المشركين ينتظرون موته؛ ليقتلوا محمدًا». ويُوصيهم بنُصرته والذَّوْدِ عنه بأرواحهم وأسلحتهم فيقول[1] (البسيط):

أُوصي بنصْرِ النبيِّ الخيرَ مُشْهِدَه

عـليًّـا ابْـنـي وعَـمَّ الخـيـرِ عبّاسا

وحـمـزةَ الأسَـدَ المخْشِـيَّ صولَتُهُ

وجـعـفـرًا أن تـذودوا دُونـه النَّاسا

وهاشمًا كُلَّها أُوصـي بنُصرَتِهِ

أن يأخذوا دون حرْبِ القومِ أمْراسا

كونُوا فِدًى لكم نفسي وما ولَدتْ

مـن دون أحْـمـدَ عند الـرَّوْعِ أتْراسا

بكلِّ أبـيـضَ مـصـقـولٍ عوارضُهُ

تَـخـالُـه في سـواد الـلـيـلِ مِقْباسا

كما يُوصي ابنَهُ طالبًا بمعاضدة الرسول ومساندته؛ والفتك بكل من أراده بسوء، فيقول في صدر قصيدة قصيرة[2] (الكامل):

أَبُنَـيَّ طالبُ ؛ إنّ شيخَكَ ناصحٌ

فـيـمـا يـقـولُ مُـسَـدِّدٌ لـك راتـقُ

١- (الديوان / ٥٣) والمقطعة خمسة أبيات.

٢- (الديوان / ٥٧) والقصيدة ثمة سبعة أبيات. وفي البيت قبل الأخير هنا إقواء.

فاضرب بسيفك من أراد مساءةً
حتى تكون له المنيّةُ ذائقُ
هذا رجائي فيك بعد منيَّتي
لازلتُ فيك بكل رُشْدٍ واثقُ
فاعْضُدْ قُواهُ يا بُنَيَّ وكنْ له
أنّى يَجِدْك لا محالةَ لاحقُ

وكذلك يحضّ ابن أخيه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، أبا أروى الهاشميّ - على نُصرة الرسول - ﷺ - مُغْرِيًا إياه بما يناله من شرف في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ **(الصافات:٠٦-١٦)**؛ فيقول[1] (الكامل):

اعلم أبا أرْوى بأنك ماجدٌ
من صُلْب شَيْبةَ فانْصُرَنَّ مُحمّدَا
لله دَرُّكَ إن عرفتَ مكانَه
في قومهِ وَوَهَبْتَ منك له يدا!
أكْرِمْ بمن يُفْضي إليه بأمره
نفْسًا إذا عَدَّ النفوسَ ومَحْتِدَا

١-(الديوان /٣٢) والمُقطَّعة ثمة ستّة أبيات. وقوله في البيت الثاني منها (لله درّه) - من الأمثال العربية - أي لله «خيره وعطاؤه وما يؤخذ منه، هذا هو الأصل، ثم يقال لكل متعجب منه» (مجمع الأمثال: ٢/١٩١).

هذا، وقد قال جامع الديوان - الذي اعتمدنا عليه - في تقديمه لهذه المقطعة: «ولم نعرف ابن أخيه، ولا من يُدعى أبا أروى» ولكني وقفت على اسمه وكنيته من (ديوان شيخ الأباطح أبي طالب/ ١٩)؛ بل يضيف مصححه في الحاشية رقم/١ ثمة، زيادة في التعريف به نقلا عن الإصابة لابن حجر، الكثير فيقول: «كان أسنَّ من عمه العبّاس، ولم يشهد بدْرًا مع قومه لأنه كان غائبا بالشام ... وكان ربيعة شريك عثمانَ في الجاهلية في التجارة، ومات في خلافة عمر قبل أخويه نوفل وأبي سُفيان، وقيل مات سنة ٢٣ بالمدينة».

وخلائقًا شَرُفَتْ بمجد نِصابِهِ
يكْفيكَ منه اليومَ ما ترجُو غَدا.

هذا، ومع ما يعلمه أبو طالب من موقف أبي لهب من الرسول ـ ﷺ ـ والكيد له؛ يتوجه إليه معاتبًا إياه على ازوراره عنه، وغَبْنِه له؛ استجابة لأضاميمَ مُفْعَمة نفوسُهم بالدخل والدخن عليه؛ راجيًا منه ـ بحكم مكانته في بني عبد مناف، وعمومته له ـ أن ينأى عن سبِّه وذمّه؛ وأن يكون له عوْنًا وردْئًا؛ يذود العدا عنه؛ وأن يباهيَ قريشًا بشرف الهاشميّين وعزّهم وقوتهم، وأن يُجبرَهم على التخلّي عن ظُلمهم له، والتخلص من أحْقَادهم عليه؛ فيقول[1] (الطويل):

عَجِبْتُ لحِلْمٍ يا ابْنَ شَيْبَةَ عازبٍ
وأحلامِ أقوامٍ لديْك سِخافِ
يقولون: شايعْ من أراد محمدًّا
بظُلمٍ، وقُمْ في أمره بخلافِ
أضاميمُ إمّا حاسدٌ ذو خيانةٍ
وإما قريبٌ منك غيرُ مُصافِ
فلا تَرْكَبنَّ الدهرَ منه ذِمامةً
وأنت امرؤٌ من خيْر عبدِ مَنافِ

---

١-(الديوان / ٥٥ ـ ٥٦) والقصيدة ثلاثة عشر بيتًا، والأضاميم جمع الإضمامة، وهي الجماعة. وقوله: (وليس بذي حِلْف ولا بمضاف)؛ أي ليس بذي عهد «من قريش: بنو عبد الدار بن قصيّ، وسهم، وجمح، وعديّ، ومخزوم» (مروج الذهب: ٥٩/٢). والمضاف: الدَّعيّ الملزق بالقوم وليس منهم. وقوله: (ذو صميمها)؛ أي خالصها.
وقوله: (يغشون ظلمنا ... فيما ساءهم بخفاف) أي يأتون ظلمنا. ولسنا مسرعين إلى إساءتهم.

ولا تَـتـْرُكَـنْـهُ مـا حَـيِـيتَ لمُعْظَم

وكــنْ رجُــلاً ذا نجْــدةٍ وعَـفـافِ

يـذودُ الـعِـدا عن ذِروةٍ هاشمِيَّة

إلاَ فُـهُـمُ في الـنـاس خـيرُ إلافِ

فــإنّ لـه قُـربـى لـديـك قريبةً

ولـيـس بـذي حِـلْـفٍ ولا بمُـضـافِ

ولـكنّـه مـن هـاشـمٍ ذو صميمها

إلى أبْـحُـرٍ فـوق الـبُـحـورِ طَـوافِ

وزاحمْ جميعَ الناسِ عنه وكُن له

وزِيــرًا عـلـى الأعــداء غـيْرَ مُجـافِ

وإن غَضبتْ منه قريشٌ فقل لها:

بنـي عَـمِّـنـا مـا قـومُـكُمْ بضِعافِ

ومـا بالُكُمْ تغْشَوْن منه ظُلاَمةً؟

ومــا نـحـنُ فيمـا سـاءهـم بخفِافِ

ولكنّـنـا أهـلُ الحـفـائِـظ والنُّهى

وعِــزٍّ بـبـطْـحـاءِ المـشـاعـرِ وافِ

وها هو ذا أيضًا في مُقطَّعة له، يُخاطب فيها أخاه أبا لهب (عبد العزّى بن عبد المطلب، وجميعَ بني هاشم، وصديقَه أبا عمارة (الوليد بن المغيرة) ـ مُؤْذِنًا إياهم بحياطة الرسول ـ ﷺ ـ وصيانَتِه؛ وداعيهَم إلى نُصرته والذود

عنه بحكم قرابته منهم ونَسَبِه الأدنى فيهم؛ فيقول [1] (الخفيف):

قُلْ لعبد العُزَّي أخي وشقيقي
وبني هاشمٍ جميعًا عِزينا

وصديقي أبي عُمارةَ والإخْـ
ـوانِ طُرًّا، وأُسرتي أجمعينا

فاعلموا أنني له ناصرٌ
ومُجِرٌّ بصَوْلَتي الخاذلينا

فانْصُروه للرِّحْم والنَّسبِ الأَدْ
ني، وكونوا له يدًا مُصْلتينا

إلى غير ذلك من وصاياه لأبي لهب التي ستأتي في موطنها حَسْب مُجْريات الأحداث التي اعتمدناها كثيرا في عرضنا.

---

١- (الديوان / ٩٢) والمقطّعة أربعة أبيات. وعزينا: متفرقين. وقوله في البيت الأخير (وكونوا له يدًا مصْلتينا) أي كونوا له يدًا واحدة «شاهرين سيوفكم دفاعًا عنه».

## المبحث التاسع

## هجرة المسلمين إلى الحبشة: دوافعها وأثرها في شعر أبي طالب

يقول ابنُ إسحاق[1] - بعد أن ذكر عُدْوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة[2]:

«فلما رأى رسول الله - ﷺ - ما يُصيب أصحابَه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمّه أبي طالب؛ وأنه لا يقدر على أن يمنعَهم مما هم فيه من البلاء؛ قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرضُ صِدْقٍ، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - مخافةَ الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم؛ فكانت أوّلَ هجرةٍ في الإسلام».

ويقول في موضع آخر[3]:

«فلمارأت قريشٌ أن أصحاب رسول الله - ﷺ - قد أمنوا واطمأنّوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رَجُلَيْن من قريش جَلْدَيْن إلى النجاشيّ، فيردّهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنّوا بها وأمنوا فيها؛ فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشيّ ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم».

وقد هال أبا طالب ما صنعت قريش، وانتابه القلق على ابنه جعفر بن أبي

---

١- (السيرة ٣٢١/١ )؛ وانظر فيمن هاجر هذه الهجرة المصدر نفسه من ص / ٣٢٢ : ٣٣٠. و(أنساب الأشراف: ١/ ١٩٨ : ٢٢٧). وانظر في الهجرة إلى الحبشة كذلك (طبقات ابن سعد: ٢٠٣/١ - ٢٠٤)، و(تاريخ الطبري: ٣٢٨/٢ - ٣٣١)، و(الكامل لابن الأثير: ٧٦/٢ - ٧٧)، و(حياة الصحابة: ٣٤٢.٣٣١/١)، و(حياة محمد/ ١٣٥ : ١٣٨)، وغيرها من المصادر التاريخية.

٢- انظر (السيرة : ٣١٧/١ : ٣٢١).

٣- السابق/ ٣٣٢. وانظر كذلك (حياة الصحابة/ ٣٣٢).

طالب الذي هاجر مع المهاجرين إلى الحبشة، واستاء من سفارة عمرو بن العاص؛ لما يعلمه من مكره ودهائه؛ ومن ثَمَّ كتب إلى النجاشيّ؛ مُوصيًا إياه بجعفر؛ وواصمًا عمرًا عنده بما يُذلّه، ويحط من كبريائه. وذلك في قوله من مقطّعته[١]؛ واصفًا حيْرته، مُحدّدًا غايتَه (المتقارب):

تقولُ ابْنتي : أيْنَ أينَ الرحيلُ
وما البَيْنُ منّي بمُسْتَنكَرِ
فقلتُ : دَعِيني ، فإنّي امرؤٌ
أُريدُ النّجاشِيَّ في جَعْفَرِ
لأكْوِيَهُ عنده كيَّةً
أُقيم بها نَخْوَةَ الأَصْعرِ[٢]

هذا، ولعلم أبي طالب بأن عمرًا داهيةٌ، مثيرٌ للفتن، مُفرّقٌ للجماعة؛ وخَوفه منه أن يقف عائقًا بين إكرام النجاشيّ لضيوفه؛ كتب إلى النجاشيّ مادحًا مُطْريًا له، راجيًا منه أن يُسْبغ كرمه على المهاجرين؛ وأن يقيهَم شَرَّ عمرو وسمومَه، يقول[٣] (الطويل):

ألا ليْتَ شعري كيف في النأي جَعفرٌ
وعمروٌ وأعداءُ النبيِّ الأقاربُ؟
فهل نال أفعالُ النّجاشيِّ جعْفرًا
وأصحابَه أو عاق ذلك شاغِبُ؟
تعلَّمْ أَبَيتَ اللَّعْنَ أنك ماجِدٌ
كريمٌ، فلا تشْقي لديْكَ المُجانبُ

١- (الديوان / ٥١) والمقطعة ثمّة ستّة أبيات.

٢- «الضمير في أكويه: راجع إلى عمرو بن العاص... والأصْعر: المتكبر» حاشية /٣ ص/٥١ من الديوان.

٣- (الديوان / ٢٠). والمقطعة خمسة أبيات. والشاعب: المُفرّق. وبرواية (شاغب) أي مثير الفتن.

تـعـلَّـمْ بــأن اللّهَ زادك بَسْطَةً

وأفــعـــالَ خــيرٍ كُـلُّـهـا بـك لازِبُ

وأنّــك فَـيْضٌ ذو سِـجالٍ غَزيرةٍ

يـنـال الأعـــادي نَفْـعَـهـا والأقـــاربُ.

وكذلك يُوحي أبو طالب إلى النجاشيّ - في تجربة أخرى - أن المهاجرين الذين اصطفْوهُ، وولَّوا وُجوهَهم إليه؛ هم على حقٍّ في إيمانهم بالرسول - ﷺ - وعلى هدي في اتباعهم الدينَ الإسلاميَّ؛ يوحي إليه بهذا حين يكتب إليه مُشيدًا بالرسول - ﷺ - ومُطْريًا رسالَتَهُ التي بشّر بها المسيحُ - عليه السلام - والتي تعرفونها وتتلونها في كتابكم؛ ثم يدعوه إلى اتّباع الهدى والرّشاد، وعبادةِ الواحد الأحد - عز وجل - فيقول [1]: (الطويل)

أتَعلَمُ مَلْكَ الحُبْشِ أن محمدًا

نبـيٌّ كموسى والمسيحِ ابـنِ مـريمِ؟

أتــى بِـهُـدًى مـثلِ الـذي أَتـَيَـا بـِهِ

وكـلٌّ بـأمـرِ اللّهِ يَـهْـدي وَيـعْـصِـمُ

وإنّـــكُـــمُ تـتـلُـونَـه في كتابكم

بصدق حديثٍ لا بِصِدقِ الـتَّرَجُّـمِ

فـلا تجعـلوا للّه نِـدًّا وأَسْـلِـموا

وإن طريق الحـقِّ ليس بمُـظْـلِـمِ [2]

---

١- (الديوان / ٩٠). والمقطعة أربعة أبيات. وفي البيت الثاني (إقواء).

٢- لا شك أن الاستغراب آخذٌ بعقل كل من يقرأ هذه الأبيات لأبي طالب،، إذ كيف يعقل أن يدعو غيره إلى الإسلام ويظل هو على الشرك، مما قد يفتح باباً للشك في نسبة مثل هذه الأبيات إليه. والأمر مفتوح في وجه التحقيق العلمي.

## المبحث العاشر

## عودة المهاجرين من الحبشة إلى مكة[1]

يقول ابنُ إسحاق في بيان سبب عودتهم، وما فُوجئوا به، وما نالهم من كيدٍ وأذىً[2]: «وبلغ أصحابَ رسول اللّه ـ ﷺ ـ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكةَ، فأقبلوا لمَا بلغهم من ذلك، حتى إذا دَنَوْا من مكةَ، بلغهم أن ما كان تحدّثوا به من إسلامُ أهلِ مكةَ كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفيًا...

فكان من دخل منهم بجوار... وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم؛ دخل بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطلب، وكان خالُه، وأم أبي سلمة: برَّةُ بنت عبد المطلب...

(حينئذ) مشى إليه رجال من بني مخزوم، فقالوا له: يا أبا طالب؛ لقد منعْتَ منَا ابنَ أخيك محمدًا، فمالَكَ ولصاحبنا تمنعُه منا؟

قال: إنه استجار بي، وهو ابنُ أختي، وإن أنا لم أمنعْ ابنَ أُختي لم أمنع ابن أخي؛ فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش؛ واللّه لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تَوثَّبون عليه في جواره من بين قومه، واللّه لتنتهنّ عنه أو لنقومَنّ معه في كل ما قام فيه، حتى يبلغ ما أراد... فقالوا: بل ننصرف عمّا تكره يا أبا عُتبةَ، وكان لهم وليًّا وناصرًا على رسول اللّه ـ ﷺ ـ فأبْقَوْا عليه. فطمع فيه أبو طالب ـ كما تقول الرواية ـ حين سمعه يقول ما يقول، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول اللّه ـ ﷺ ـ فقال أبو طالب يحرّض أبا لهب على نصرته ونصرة الرسول ـ ﷺ ـ».

---

١- انظر سبب عودتهم في: (السيرة النبوية: ١/٣٦٤)، والطبقات: ١/٢٠٥: ٢٠٧)، و(تاريخ الطبري: ٢/٣٣٨ : ٣٤٠)، و(البداية والنهاية: ٣/٩٠: ٩٣)..

٢- (السيرة: ١/٣٦٤، ٣٦٩، ٣٧١) ، وانظر قصة أبي سلمة أيضا في (البداية والنهاية : ٣/٩٣).

وأبو طالب في هذه القصيدة يشيد بمنزلة الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ويُعلي من شأن أبي لهب؛ راجيا منه الثبات والاستقرار على ماهم فيه؛ ويربأ به أن يعطي الدنيّة في حياته، وأن يجرّ عليه ما يصمه بالعجز والخَسْف، مع أنه من أهل العز والفخر؛ ناصحا إياه بأن يحقق النَّصَفَ بقوته وسلاحه؛ مُسْتنكرًا عليه محاربته لقومه الذين لم يُبْدوا له خصومة، ولم يُشْهروا في وجهه سيْفًا؛ ولم يتخلَّوْا عنه في سرائه أو ضرائه.

ثم يُندّد بأربعة بطون من قريش هؤلاء الذين دفعهم عقوقُهم، وحملتهم آثامُهم على تمزيق أواصر الجماعة بعد وُدٍّ وأُلفة؛ مُسفّهًا أحلامهم التي سوّلت لهم إمكان تسليم الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لهم، دون أن يَروْا منّا ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾؛ يقول[1] (الطويل):

وإنّ امــرأً أَبــو عُـتـيـبـةَ عمُّه
لفي روْضَــةٍ مـا إنْ يُـسـامُ المظالما
أقــولُ لـه، وَأَيــن منه نصيحتى:
أبــا مُـعْـتـبٍ ثـبِّـتْ سَــوادَك قائمًا
فلا تقْبلنَّ الدهرَ ما عشتَ خُطَّةً
تُـسَـبُّ بـهـا إمّــا هَـبَـطْـتَ المواسما
وَوَلِّ سبيلَ العجْزِ غـيرَك منْهُمُ
فـإنـك لم تُـخْـلَقْ على الـعْـجـز لازِما
وحارِبْ فإنّ الحربَ نِصْفٌ ولن تَرَىَ
أخا الحربِ يُعطي الخَسْفَ حتى يُسالِما

---

١- القصيدة مذكورة في (السيرة: ١/ ٣٧١-٣٨٢)، و(البداية والنهاية ٣/ ٩٣)، و(الديوان / ٧٨-٧٩)؛ وهي تسعة أبيات.

وكيف ولم يَجْنُوا عليك عظيمةً

ولم يخْذُلوكَ غانمًا أو مُغارِما؟

جزى اللهُ عنّا عبدَ شمسٍ ونَوْفلاً

وتَيْمًا ومخْزومًا عُقوقًا ومأثما

بتفريقهمْ من بعدُوُدٍّ وأُلْفةٍ

جماعتَنا كيما ينالوا المحارِما

كذبتمْ وبيتِ اللهِ نُبزَى محمدًا

ولَمَّا تَروْا يومًا لدي الشِّعبِ قائما

هذا، وقد كان من المسلمين الذين عادوا من الحبشة، ولم يتمكنوا من دخول مكةَ إلا بجوارٍ؛ عثمانُ بنُ مظعون ـ من بني جمح بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب[١] ـ «الذي دخل ـ كما يرْوي ابنُ الأثير[٢] ـ بجوار الوليد بن المغيرة، ثم قال: أكون في ذمة مشرك! جوارُ الله أعزُّ؛ فردّ عليه جِواره. وكان لبيدُ بنُ ربيعةَ يُنشد قريشًا قولَه:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

فقال عثمانُ بنُ مظعون: صَدَقْتَ . فلما قال:

وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائلُ

قال: كذبْتَ ! نعيمُ الجنة لا يزول؛ فقال لبيدُ: يا معشرَ قريش؛ ما كانت مجالسُكم هكذا ولا كان السَّفهُ من شأنكم. فأخبروه خبرَه وخبرَ ذِمّته. فقام بعض بني المغيرة فلطم عينَ عثمانَ، فضحك الوليدُ شماتةً به حيث رَدّ جِواره، وقال لعثمانَ: ما كان أغناك عن هذا! فقال: إن عَيْنِيَ الأخرى

١- انظر في نسبه وقصته بالتفصيل : (السيرة النبوية : ٣٢٢/١، ٣٦٩ ـ ٣٧٠). وانظر القصة في (أنساب الأشراف: ٢٢٧/١ ـ ٢٢٨).

٢- (الكامل في التاريخ : ٧٧/٢).

لمحتاجةٌ إلى مثل ما نالت هذه. فقال له: هل لك أن تعود إلى جواري؟ قال: لا أعودُ إلى جوارِ غير الله... وأقام المسلمون بمكةَ يُؤذَوْن، فلما رأَوْا ذلك رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانيا».

ولما علم أبو طالب بما حلّ بعثمانَ بنِ مظعون من أذىً شديد، وتعذيبٍ دِراكٍ؛ غضب لذلك ـ كما غضب المسلمون ـ غضبًا شديدًا سلبه نومه وأمنه؛ وشرع يرْميهم من قوس شعره بالسفه والحمق والجنون والغدر والسوء والفحشاء؛ مؤكدا لهم أنه سيأخذ له تَبْلَه، وسيجزيهم بمثل ما فعلوا به صاعًا بصاع «جَزاءً وِفاقا». وإذا لم ينتهُوا عمّا نُهوا عنه من صلفٍ وغيٍّ فَسَيَحِلُّ عليهم الذلُّ والهوانُ بما يُلاقونه من طعنات رماحنا الحادة وضربات سيوفنا القاطعة حتى يثوبوا إلى رشدهم. فقال[1] (البسيط):

أمِــن تَــذكـرٌ دَهْــرٍ غـيرِ مـأمـونِ
أصْـبحـتَ مُكتئِبًا تبكي كمحزونِ؟

أم من تـذكُّر أقـوامٍ ذَوي سَفَهٍ
يَغْشَوْن بالظُّلْم مَنْ يدْعو إلى الدين؟

لا ينْتهون عن الفَحشاءِ ما أُمِروا
والـغـدرُ فيهم سـبـيلٌ غـيرُ مـأمـونِ

ألا يــرَوْن ـ أذلَّ اللهُ جمْعَهُمُ ـ
أنّــا غَضِبْنا لعثمانَ بـنِ مظعون؟

إذْ يلْطِمون ـ ولا يخْشَوْن ـ مُقْلَتَه
طَعْنًا دِراكًــا وضَــرْبًا غـيرَ مأمون

١- (الديوان / ٩٤ـ٩٥) . والقصيدة اثنا عشر بيتا.

فسوف نجزيهُمُ - إن لم يمتْ - عَجِلاً
كيـلا بكيـل جَــزاءً غــيْرَ مغبون

أو ينْتَهُون عن الأمـر الـذي وقفوا
فـيـه، ويَـرْضَـوْن منّـا بعْدُ بـالـدُّون

ونمنعُ الضّيْمَ مَنْ يبْغي مَضامَتَنا
بـكـلِّ مُـطَّـردٍ في الـكـفِّ مسْنون

ومُـرْهَـفـاتٍ كَـأَنّ المِلْـحَ خالَطَها
يُشفَى بها الـدّاءُ من هـام المجانين

حتـى تُـقِـرَّ رجــالٌ لا حُـلـومَ لها
بعد الـصّـعـوبة بـالإسـمـاح والـلّـين

أو يُؤمنـوا بكتـابٍ مُـنْـزَلٍ عَجبٍ
علـى نـبـيٍّ كموسى أَوْ كـذي الـنّـونِ

يـأتـي بـأمـرٍ جَلِـيٍّ غـيْرِ ذي عِـوَجٍ
كـمـا تـبـيّنَ في آيــات يـاســين[١].

---

١- جاء في الحاشية رقم / ١٢ ص/ ٩٥ آيات ياسين... وهي ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

## المبحث الحادي عشر

### تحالفُ الكفار ضِدّ الرسول ـ ﷺ ـ

### وحصْرُهُم بني هاشم في شِعْبِ أبي طالب وصحيفتهم لمقاطعتهم[1]

لمّا نُميَ إلى قريش حَدَبُ النجاشيّ على المهاجرين المؤمنين وإكرامه لهم، وتيقّن لديهم فشلُ سِفارةِ عمرو بن العاص وزميله إليه؛ كما رأَوْا أن عمر بن الخطاب قد أسلم، فأصبح هو وحمزة بن عبد المطلب رِدئًا للرسول ـ ﷺ ـ وعونا له، وهالهم كذلك انتشارُ الإسلام في القبائل ـ أجمعوا على قتل محمد ـ ﷺ ـ علانيةً؛ فلما علم أبو طالبٍ مكرَ قريش؛ أمرَ قومَه أن يَدْخلوا ورسول الله ـ ﷺ ـ معهم شِعْبَ أبي طالب: واستنهضهم على حمايته ومنعه ممن أراد به سوءًا؛ فصدع بنو هاشم وبنو المطلب بأمره جميعا؛ مُسْلِمهُم إيمانًا ويقينًا؛ وكافرُهم تعصّبًا وحميَّةً؛ على أن أبا لهبٍ قد خرج من بينهم فظاهر قريشا عليهم.

وقد حرص أبو طالب على سلامة الرسول ـ ﷺ ـ الحرص كلّه؛ «فكان إذا أخذ الناسُ مضاجعَهم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك مَنْ أراد به مكرًا واغْتيالاً له؛ فإذا نام الناس أمر أحدَ بنيه أو إخوته أو بني عمّه، فاضطجعوا على فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وأمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتيَ بعضُ فُرشِهم فينام عليه»[2]. ومن ذلك أمرُه لابنه عليّ أن ينام على فراش الرسول ـ ﷺ ـ مُوصيًا إياه بالتحلّي بالثبات والتَّجمل بالصبر، مُذكّرَه أن لكل أجل كتابا، وأن الموت حتمٌ مقضيٌّ على كلِّ إنسانٍ

---

١- انظر في ذلك: (السيرة النبوية: ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) (طبقات ابن سعد: ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، و(أنساب الأشراف: ١/٢٢٩: ٢٣٦)، و(تاريخ الطبري: ٢/٣٣٥ : ٣٤٣)، و(الكامل في التاريخ: ٢/ ٨٧ : ٩٠)، و(البداية والنهاية: ٣٠/ ٨٤ : ٩٨)، و(خزانة البغدادي: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨)، و(حياة محمد/ ١٥٧)؛ وغير ذلك من كتب السِّير والمصادر التاريخية في هذه المناسبة.

٢- (البداية والنهاية: ٣/ ٨٤).

مهما طال عمره؛ مؤكدا له أن الصبر قد نفد وأن المحنة جلل والحزن شديد، لكن كل شيء يهون في سبيل فداء الحبيب ابن الحبيب؛ النبيّ المنير، الكريم، الشريف، النجيب، سيّدِ قومِه؛ بل سيّد البشر أجمعين؛ وذلك في قوله[1] (الخفيف):

اصبِرَنْ يا بُنَيَّ فالصَّبْرُ أَحْجى
كـلُّ حَـيٍّ مـصـيرُهُ لِـشَـعُـوبِ

قد بَلي الصّبرُ والبلاءُ شديدٌ
لـفـداء الحـبـيـبِ وابـن الحبيب

النبيِّ الأَغَـرِّ ذي الحسب الثَّا
قِـبِ والبـاعِ والكـريمِ النَّجيبِ

إن تُصِبْكَ المنونُ فالنبْلُ تَتْرى
فمصـيبٌ منها وغـيرُ مُصيبِ

كـلُّ حـيٍّ وإن تَمـلَّى بعُـمْـر
آخِـذٌ مـن مَـذاقـهـا بنصيبِ

فلما رأت قريشٌ أنّ القوم قد منعوا رسول الله ـ ﷺ ـ ائتمروا بينهم، وأبرموا أمرهم على مقاطعتهم مقاطعة كاملة، حتى يُسْلموا رسول الله ـ ﷺ ـ للقتل؛ وكتبوا بذلك صحيفةً ألا يخالطوهم، ولا يُبايعوهم، ولا يُناكحوهم؛ «ثم علّقوا الصحيفةَ في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عِكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد

---

١- (الديوان / ٢٤). والمقطّعة خمسة أبيات. وقوله: (فالصبر أحجى): أي أولى. وقوله: (مصيره لشَعوب) أي للمنية.

الدار بن قُصيّ... فدعا عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فَشَلَّ بعضُ أصابعه»[١]؛ وعلى رواية ابن سعد «فشَلّت يدُه... وحَصروا بني هاشم في شِعْب أبي طالب ليلة هلال المحرّم سنة سبع من حين تُنُبِّىء رسول الله ـ ﷺ.... وقطعوا عنهم المِيرةَ والمادّةَ، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد، وسُمع أصواتُ صبيانهم من وراء الشّعب... فأقاموا في الشِّعْب ثلاثَ سنين»[٢].

هذا، ولقد كان وقعُ هذا القرارِ على نفس أبي طالب ثقيلاً أليمًا، اشتعلت منه مشاعرُه، وتفجرّت عواطفُ الغيظ والحنقِ في نفسه عليهم من جرّائه؛ ومن ثَمَّ راح يقْذِفُهم عَبْرَ هذه السنوات بِكل قارصةٍ من القول، ويَرْميهم بكلِّ ما يُرْديهم من الحديث. ولعل أكثر ما أُثر له من شعرٍ كان تعبيرًا عن هذه الكارثة وتصويرًا لها. فهاهوذا ـ غِبَّ هذا القرارِ مُباشرةً، في الوقت الذي تتوقّعُ فيه قريشٌ منه خضوعًا وخنوعًا واستسلامًا وتسليما بِأَرَبهم؛ وإذا به ـ في مطلع قصيدته ـ يُحدِّد خطابه، ويُسدّد سهامه إلى نحورهم رائشةً غيرَ طائشة، بما يُقْرِعُهم ويُفْزِعُهم، ويقضُّ مضاجِعَهم، ويخيّب آمالَهم؛ مُؤكدًا لهم ـ بالتعبير بالماضي واختيار فعل من أفعال اليقين (وجد) ـ أن محمدًا ـ ﷺ ـ الذي تأملون منّا بصنيعكم الغادر الفاجر البغيض ـ التّفريطَ فيه، قد وجدناه ـ يقينًا ـ نبيًّا كموسى ـ عليهما السلام ـ وقد أقرت به كتبُ الأنبياء قبله؛ وقد غرس الله ـ عز وجل ـ محبتَه في قلوب العباد، ومَنْ أَحبّه الله، وجذب إليه قلوب عباده؛ فهو أفضلُ البشر، وخيْرُ البرّية؛ وهو بذلك يُصان ولا يُهان، ويُفْدَى ولا يُعْطَى؛ هذه هي الحقيقة التي أنتم عنها عمون؛ والتي غُمّت عليكم، وحجبها عنكم حُمْقُكم وجهلُكم، وحِقدُكم علينا بما

---

١- (السيرة النبوية: ١/٣٥٠).

٢- (الطبقات الكبرى: ١/٢٠٩). وانظر كذلك (أنساب الأشراف: ١/٢٣٣ ـ ٢٣٤)؛ وفيه: «قالوا: ومكث بنوعبد المطلب وبنو المطلب في شِعب أبي طالب ثلاث سنين».

ويذكر البلاذري حديثًا ـ بسنده ـ «عن عبد الله بن عباس، قال: حُصِرْنا في الشِّعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا المِيرَةَ، حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبتاع شيئًا، حتى مات منّا قوم».

شرَّفنا اللّه به. «واللّه أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه».

ثم بيّن لهم أن مارَقَّشْتُموه في صحيفتكم هو، لا محالةَ، شؤمٌ عليكم، كرغاء سَقْب ناقة صالح ـ عليه السلام ـ على ثمود؛ ناصحًا لهم بالتراجع عن هذه المقاطعة قَبل أن تُثارَ مخازيهم، ويَفْتَضِحَ أمرُكم، ويَعُمَّ الويْلُ المذنبَ منهم والبريءَ على السواء؛ ناهيًا إياهم عن اتباع الهوى والانسياق لقول الأدْعياء الأفاكين الحاقدين، حتى لا تتمزّقَ أواصرُ القربىبيننا .

ثم تشتد لهجتهُ مهدِّدًا ـ إذا لم يثوبوا إلى رشدهم ـ بحرب عَوانٍ ، تُذيقُهم الويلات والهوانَ؛ آليًا بربِّ البيت إنه لن يخذُلَ محمدًا ـ ﷺ ـ مهما قَلَبَ الزّمانُ له ظَهْرَ مَجَنِّه، وعضّه بأنيابه؛ دون أن تُفْصلَ منها ومنكم الأعناقُ، وتُقطَّعَ الأيدي التي تحملُ سيوفَها لامعةً بتَّارةً؛ في معركة حاميةِ الوَطيس، تتكسّرُ فيها الرماحُ والنّصالُ، وتعكُفُ فيها النّسورُ على جُثَثِ القتلى؛ معركةً يُعبِّر صُهالُ الخيولِ في أرجائها، وصيحاتُ المحاربين وجَلَبَتُّهم في أنحائهاً عن مدى شدّتها وعُمق ضَراوتها؛ «فهل أنتم منتهون» قبل أن تحلَّ عليكم هذه الطّامَّةُ الكبرى؟ «قد أعْذَر مَنْ أَنْذَر»، «اللّهُمَّ إنّي قد بلَّغْتُ اللّهمّ فاشْهد».

هذا، ولثقة أبي طالب بِغَلَب قريشٍ، وتأكيدًا لقهرهم ـ شرع يفتخر بميراث بني هاشم في الحروب، وحفاظهم بوصية أبيهم هاشم في المعارك؛ مُشيدًا بقوتهم، ومدى قدرتهم على خوض الوغى، وتجشّمهم في ساحتها الشدائد والأهوال، دون كلل أو ملل، ودون شكوى أو أنين، ولا غرابة في هذا فهم أُولو النُّهى، وأهلُ الحميّة، وذوو الثّبات في المواقف التي يطير منها لُباب الكماة. على ما جاء في قصيدته[1] (الطويل):

ألا أبلغا عنّي على ذات بيْننا
لُؤَيًّا وخُصًّا من لُؤَيٍّ بني كعب

---

١-(الديوان / ٢٧ : ٢٩) والقصيدة أربعة عشر بيتًا. وقوله في البيت السابع: (جلب الحرب): أي ما تجلبه الحروب من ويلات ونكبات.

(لعزاء) ـ في البيت الثامن ـ أي لشدة وويل. وقوله: في البيت العاشر: (والنسور الطّخم يعكفن كالشرب) أي النسور ذات الرؤوس السوداء التي تعكفن كجماعة الشاربين.

أَلم تعلموا أنا وجَدْنا محمدًّا
نبيًّا كموسى خُطَّ في أَوَّل الكُتُب؟
وأَنَ عليه في العباد محبَّةً
ولا خيرَ ممَّنْ خَصَّهُ اللهُ بالحبِّ
وأن الذي أَلْصقْتُمُ من كتابكم
لكم كائنٌ نَحْسا كراغية السَّقْب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحْفَرَ الثَّرى
ويُصْبِحَ مَنْ لم يَجْنِ ذَنْبًا كذي ذَنْبِ
ولاَ تتْبعوا أمْرَ الوُشاةِ وتقْطعوا
أواصِرَنا بعد المودَّةِ والقُرْب
وتستجلبوا حرْبًا عوانًا ورُبَّما
أمرَّ على مَنْ ذاقَهُ جَلَبُ الحرب
فلسنا وربِّ البيتِ نُسْلِمُ أَحمدًا
لِعزَّاءِ من عَضِّ الزَّمانِ ولا كرْب
ولَّما تَبِنْ منَّا ومنكم سَوالفٌ
وأَيْدٍ أُتِرَّتْ بالقُسَاسِيَّة الشُّهْب[1]
بمُعْتَركٍ ضَنْكٍ تُرى كِسَرُ القنا
به والنُّسُور الطُّخْمُ يَعْكِفْنَ كالشَّرْب

---

١- جاء بالحاشية / ٩ من الديوان ص٢٨:«القُساسيّة: سيوف تنسب إلى جبل اسمه قساس، يروى أنه في أرمينية».
والسوالف: جمع السالفة؛ وهي صفحة العنق. (وأيْدٍ أُتِرَّت) أي قطّعت.

كـأن صُـهـالَ الخيـلِ فِي حَجَراته

ومَغْـمـعـةَ الأبـطـالِ معـركـةُ الحـرب

ألـيـس أبـونـا هـاشـمٌ شَـدَّ أزْرَهُ

وأوْصــى بنيه بالطِّعان وبالضَّرْب؟

ولسنا نمَـلُّ الحـربَ حتـى تملَّنا

ولا نشتكي مـا قـد يَـنُـوبُ من النّكْب

ولـكنـنـا أهـلُ الحـفـائِـظِ والنُّهى

إذا طـار أرواحُ الكُماةِ من الرُّعْبِ

هذا، وفي الغرض نفسه يقول شاكيًا ظلم قومه ـ مُعرِّضًا بهم، مُسفِّهًا أحلامَهم التي سوّلت لهم إمكانية قتل الرسول ـ ﷺ ـ مُهدّدًا إياهم بحرب مُبيرةٍ مُبيدة، وقوُدها زعماؤهم وجنودهم؛ مادحًا الرسول ـ ﷺ ـ مُطريًا فيه شرفَه وكرَمه وطيبَ محتده، وأمانتَه ومهابتَه، وحَبَّ العباد له، وتمييزَه بخاتم رب العالمين، وتخصيصَه بالوحي «من لدن حكيم عليم»؛ وأخيرًا يفخر أبو طالب بقومه الذي يحيطون بالرسول ـ ﷺ ـ وَيذُبّون عنه كلَّ عاتٍ جبار؛ ويفدونه بأرواحهم؛ على ما جاء في هذه القصيدة التي مطلعها[1] (الطويل):

لمن أرْبَعٌ أقْوَيْن بيْن القدائم أقـمْـنَ بِمِـدْحـاةِ الـريـاحِ التّوائم؟

١- (الديوان / ٨٣ : ٨٥) والقصيدة عشرون بيتًا. وقوله في القصيدة (وحي الغمائم)؛ أي صوت الغيوم. وقوله: (قطف اللحي والغلاصم)؛ اللحي : الرقاب، والغلاصم، جمع غلْصمة: وهي أعلى الحلقوم، وقوله: (أبناء الكهول القماقم) أي الرجال الأقوياء والسادة الأشراف فالقماقم، جمع القمقام؛ وهو السيد. وقوله: (جرثومة) فئة من الناس.

هذا، وقد علق جامع الديوان ـ في الحاشية / ١٣ من ص /٨٤ ـ على قول أبي طالب: (ولم تبصروا الأحياء منكم ملاحما) فقال: «الأحياء: مرفوعة لأنها بدل من واو (لم تبصروا)...» وقد فضّلت نَصْبَ (الأحياءَ) على الاختصاص. ولعل رواية الشطر: «ولم تُبْصِرِ الأحياءُ...» فيكون الرفع على الفاعلية.

والتي يقول فيها بعد مقدمته الطللية:

فبلِّغْ على الشّحْناءِ أفْنـاءَ غالبٍ
لُـؤَيًّـا وتَيْـمًـا عند نَصْـر الكرائم

بـأنـا سُـيوفُ اللّهِ والمـجْـدِ كُـلِّهِ
إذا كـان صوتُ القومِ وَحْـيَ الغمائم

ألم تعلموا أن القطيعةَ مـأْثَمٌ
وأمــرُ بَــلاءٍ قـائـمٍ غـيْرِ حـازم

وأن سبيلَ الـرُّشـدِ يُعْلَمُ في غَدٍ
وأن نـعيـمَ الـدهـرِ ليس بـدائـم؟

فلا تَسْفَهَنْ أحلامُكم في محمّدٍ
ولا تَتْبـعَـوا أمْـرَ الـغُـواةِ الأشائم

تمـنَّـيْـتُـمُ أن تقـتـلـوه، وإنّمـا
أمـانِـيُّـكـم هــذي كـأحـلام نـائِـم

فـإنــكـمُ والله لا تـقـتـلـونـه
ولمَّـا تَـروْا قَـطْـفَ اللِّحي والغَلاصِمِ

ولم تُبصروا الأحياءَ منكم مَلاحمًا
تحـومُ عليها الـطَّـيرُ بعد مَـلاحِـمِ

وتـدعـوا بـأرحـامٍ أواصِــرَ بيننا
وقـد قـطـعَ الأرحــامَ وقْـعُ الصوارم

وتسمو بخيلٍ بعد خيلٍ يَحُثُّها
إلى الـرَّوْع أبـنـاءُ الكُهولِ القماقم

من البيضِ مِفْضالٌ أَبِيٌّ على العدا
تمكَّنَ في الفرعَيْن في حَيٍّ هاشمِ

أمـينٌ مُحَـبٌّ في العبادِ مُسَّودٌ
بـخـاتم ربٍّ قـاهـرٍ للـخـواتم

يرى الناسُ بُرهانًا عليه وهَيْبَةً
ومـا جـاهـلٌ أمـرًا كـآخـرَ عـالمِ

نبـيٌّ أتـاهُ الـوحْـيُ من عند ربِّه
ومَـنْ قـال: لا، يَقْـرَعْ بها سِنَّ نادم

تُطيفُ به جُرْثومةٌ هاشميَّةٌ
تُـذَبِّـبُ عنـه كـلَّ عـاتٍ وظـالم.

هذا، وقال أبو طالب في حصارِ الشِّعب أيضا، يخاطب بني قُصَيٍّ - قُصيٍّ الذي جمَّع بطونَ قريشٍ بعد أن كانت مِزْقًا وصِرْمًا، فجاء أبناؤه من بعده يُمزِّقون أواصر القربى بنفيهم بني هاشم وحصارهم في شِعْبهم - يُخاطبهم محقِّرًا سُلوكَهم؛ مُبْطلاً دعواهم واتّهامَهُمْ محمدًا - ﷺ - بالمَيْن والكذب؛ ساخرًا من زعمهم الحفاظ على الجيرة والنّسب؛ مخَيِّبًا آمالهم في إمكانية تسليم الرسول - ﷺ - إليهم؛ مُنْذِرَهم بما حلّ بالعرب من خطوب وأهوال من قبل؛ مُهدِّدًا إياهم بحرب ضروسٍ يشنُّها عليهم كرامُ بني هاشم بِعَدَدِهم وعُدّتهم. وهو في خلال ذلك يُشيد بالرسول - ﷺ - الذي جاء بالحق من ربّه، كما يفخر - إلى جانب إشادته بِعُدَّته: رماحًا، وسيوفًا، وأفراسًا، وفُرسانًا - بما

منّ الله على بني هاشم وبني المطلب بالأخوة الصادقة والوحدة المتماسكة؛ وذلك في قوله[1] (المتقارب):

تــطــاول لــيــلــي بــهَــمٍّ وَصِــبْ
وَدَمْــعٍ كَـسَـحِّ الـسِّـقـاءِ الـسَّـرِبْ
لِـلِـعْـبِ قُـصَـيٍّ بـأحـلامـهـا
وهـل يَـرْجِـعُ الحِـلْـمُ بـعْـدَ الـلَّـعِـبْ؟
ونَــفْــيِ قُـصَـيٍّ بـنـي هـاشـم
كـنَـفْـيِ الـطُّـهـاةِ لِـطـافَ الخَـشَـبْ
وقـــولٍ لأحــمَــدَ: أنــت امــرؤٌ
خَـلُـوفُ الحـديـثِ، ضَـعيفُ السببْ
وإن كــان أحـمـدُ قـد جـاءهـم
بـحـقٍّ ولم يـأْتِـهـمْ بـالـكـذبْ
عـلـى أنّ إخـوانَـنـا وازَرُوا
بـنـي هـاشـمٍ وبـنـي المُـطَّـلِـبْ

١- (الديوان / ١٧ : ١٩) والقصيدة عشرون بيتًا. وقوله في القصيدة: (بهمٍّ وَصِبْ)، أي دائم. (السّقاء السَّرب) القربة التي تسيل منها الماء. (لطاف الخشب): صغاره. (خَلوف الحديث): كاذبه. (ضعيف السبب)، أي اتخذت سببا واهيا لتحقيق رَغبتك: (وازوا): أعانوا. (كعظم اليمين) كناية عن القوة الفائقة. (أمرًّا) شدًّا وأحكما الشدّ. (عقد الكَرَبْ): حبل قصير يصل رشاء الدلو بالخشبة المعترضة عليها. (بُعيد الأنوف) بعد السادة الأشراف. (بعَجْب الذّنب) هو الجُزَيْء في أصل الذّنب عند رأس العصعص. ويقصد به هنا: السفلة من الناس وطغامهم.
(تصطلوا): تذوقوا. (وخيلا عُصب). جماعات من الخيل (الخيل تمزع) أي تسرع سرعة خفيفة. (العنيق): أشد أنواع السير، مقابل (الخبب). (ضافي السبيب): طويل شعر الذيل. (وجَرْداء) قصير الشعر، وهي صفة حسنة في الفرس. (كالظبْي) كالغزال مذكرا كان أو مؤنثا.

هُـمـا أخـــوان كَـعـظْـم الـيـمـينِ
أَمَــــرًّا عـلـيـنـا بـعَـقْـد الـكَـرَبْ

فـيـالَـقُـصَـيٍّ، ألم تُـخـبَروا
بما حـلَّ مـن شُـئِنٍ في الـعـربْ!

فـلا تُمْـسِـكُـنَّ بـأيـديـكـمُ
بُـعَـيْـدَ الأُنــوفِ بِـعَـجْـبِ الـذَّنَـبْ

ورُمْــتُـمْ بـأحـمـدَ مـا رُمْـتُـمُ
عـلـى الأَصِــراتِ وقُــرْبِ النَّسَبْ

إلامَ إلامَ تَـلاقَـيْـتُـمُ
بـأمـرٍ مُــزاحٍ وحِـلْـمٍ عَــزِبْ؟

زعـمـتـمْ بــأنـكُـمُ جِــيرَةٌ
وأنــكُــمُ إخــــوَةٌ في الـنَّـسَـبْ

فـكـيـف تُـعـــادون أبــنــاءَهُ
وأهْــلَ الـديـانـةِ بيـتَ الحَـسَـبْ؟

فـإنـا ومَــنْ حَــجَّ مـن راكـبٍ
وكـعـبـةِ مـكـةَ ذاتِ الحُـجُـبْ

تـنـالـون أحـمـدَ أو تصطلوا
ظُـبـاةَ الـرِّمـاح وحَـدَّ الـقُـضُـبْ

وتـعـترفـوا بـين أبـيـاتِـكُـمْ
صُـدورَ الـعـوالي وخَـيْـلاً عُصَبْ

إذِ الخيلُ تمْـزَعُ في جَرْيِها
بسَيْرِ العَنيقِ وحَثِّ الخَبَبْ

تراهُنَّ من بين ضافي السَّبيبِ
قصيرَ الحزام طويلَ اللَّبَبْ

وجَرْداءِ كالظّبْيِ سيْموحَةٍ
طواها النَّقائعُ بعد الحَلَبْ

عليها كرامُ بني هاشمٍ
هُمُ الأنْجَبون مع المُنْتَخَبْ

هذا، وفي المعاني السابقة يقول أبو طالب أيضا مخاطبا قريشًا، منكرًا عليهم ظلمهم وعقوقهم؛ وانتهاكهم المحارم من بني هاشم، وحصارهم في الشِّعب، مُندِّدًا ببني تيْم، وبني هُصَيْص بن كعب بن لُؤَيٍّ، وبني مخزوم؛ مبيّنًا أن هؤلاء جميعا قد طاشت حُلومُهم، وخَفّتْ من الحمق عُقولُهم؛ فأطاعوا الوليدَ بنَ المغيرة وأبا سفيانَ بنَ حرْب في خُطّتهما الجائرة الحمقاء لإخراج بني هاشم من مكةَ؛ ساخرًا منهم أمانيَّهم الزائفة إقصاءهم، وقتلَ الرسول - ﷺ - من بينهم دون أنَ تُصرع حوله رجالهُ، وتمنعه أعمامُه وأخوالُه؛ في معركة حامية الوطيس يلتقي فيها الخصوم، وتضيق ساحتها بالقتلى منا ومنكم؛ وتنجلي بالذّلة والهوان لكم.

وفي نهاية القصيدة يشيد ببني هاشمٍ شرفَهم، وسيادتَهم وسموَّ منزلتهم، على ما جاء في قوله[1] (الوافر):

---

١- (الديوان / ٧٩ ـ ٨٠) والقصيدة ثمانية عشر بيتًا. «وقسيم: ضدّ. والعديم: الأحمق. الوره: الحمق. مليم: وقع عليه اللوم. وقالوا خُطّة: أي أمرًا.
الأبلج: المضيء. البلاقع: الأراضي الخالية الجدباء. الحطيم: جدار مكة.
الراقصات: الإبل التي تسير بخطوات واسعة. الخدّ اللطيم: أي الملطوم؛ كناية عن الذل والهوان.
النّدي: نادي القوم. العرنين: السيد الشريف. الأنف الصميم: السيد الخالص».

أَرِقْــتَ وقـد تـصـوَّبـتِ النّجومُ

وبِـــتَّ ومــا تُـســالمُك الـهُـمـومُ

لـظُـلْـم عَـشـيرةٍ ظلـموا وعَـقُّـوا

وغِـــبُّ عُـقـوقِـهـم كَـــلأٌ وَخِـيـمُ

هُـمُ انتهكوا المحـارمَ من أخيهم

ولـيـس لـهـم بـغـير أخٍ حَـــرِيمُ

إلى الـرَّحـمـن والـكـرِم اسْتذمُّوا

وكـــلُّ فَـعـالِـهـم دَنِـــسٌ ذَمـيـمُ

بنـو تَـيْـمٍ تُـؤازِرُهـا هُصَيْصٌ

ومخــــزومٌ لـهـا مـنّـا قـسـيـمُ

فـلا تنْهيَ غُـواةَ بني هُصَيْصٍ

بــنــوَتـيْـمٍ وكــلُّـهـمُ عَـــديمُ

ومخـــزومٌ أقـــلُّ الـقـومِ حِلْمًـا

إذا طـاشـت مـن الـــوَرَهِ الحـلـومُ

أطاعوا ابـنَ المُغيرةِ وابـنَ حرْبٍ

كِــلا الـــرَّجْـلَـيْنِ مُـتَّـهَـمٌ مُـلـيـمُ

وقــالـوا خُـطَّـةً جَــوْرًا وحُـمْـقًـا

وبـعـضُ الـقـولِ أبْـلَـجُ مُستقيمُ

لَـنُـخْـرِجُ هـاشـمًـا فيصـيرُ منها

بـلاقـعَ بـطـنُ زمـــزمَ والحـطـيـمُ

فـمـهـلاً قَـوْمَـنـا لا تـرْكبـونا
بمَـظْـلـمـةٍ لـهـا أمـــرٌ عظـيـمُ

فـيْـنـدَمَ بعضُـكم ويَـــذِلَّ بعضٌ
ولـيـس بمُـفْـلـحٍ أبـــدًا ظـلـومُ

فـلا والـرَّاقـصـاتِ بـكلّ خَـرْقٍ
إلى مـعـمـور مـكـةَ لا نَـــريمُ

طَـــوالَ الـــدَّهـــرِ حتـى تقتلونا
ونـقْـتُـلَـكُـمْ وتـلْـتـقـيَ الخـصـوم

ويُـصـــرَعَ حـولَـه مـنَّـا رجـالٌ
وتمـنَـعَـه الخُـئُـولَـةُ والـعُـمـومُ

ويـعـلـمَ معـشـرٌ ظـلـموا وعَـقّـوا
بـأنّـهـمُ هُـــمُ الخـــدُّ الـلَّـطـيـمُ

أرادوا قَـتْـلَ أحـمـدَ ظـالمـوهُ
ولـيـس بـقـتْـلـهِ فـيـهـم زعـيـمُ

ودون محـمّـدٍ مـنّـا نَـــدِيٌّ
هُـمُ الـعِـرْنـيـنُ والأنْــفُ الصَّميمُ

## المبحث الثاني عشر

## موقف الأَرَضَة من صحيفة المقاطعة[1]

يحدثنا ابن سعد عن هذا الموقف بإيجاز ـ بعد أن ذكر أن قريشًا قد قطعت عن بني هاشم في شعبهم الميرةَ والمادةَ؛ فيقول[2]: «ثم أطلع الله رسولَه على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلتْ ما كان فيها من جَوْرٍ وظُلْم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله ـ عز وجل ـ...

فذكر ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ لأبي طالب، فذكر ذلك أبو طالب لإخوته، وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفار قريش: إنّ ابنَ أخي قد أخبرني ولم يكذبني قطّ أن الله قد سلّط على صحيفتكم الأرَضَة، فَلَحستْ كل ما كان فيها من جورٍ أو ظلم أو قطيعة رَحم، وبقي فيها كل ما ذُكر به الله؛ فإن كان ابنُ أخي صادقًا نزعتم عن سُوء رأيكم، وإن كان كاذبًا دفعتُه إليكم فقتلتُموه أو استحْييتموه. قالوا: قد أنْصفْتنا. فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هي كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فَسُقِطَ في أيديهم، ونُكِسُوا على رؤوسهم».

ويضيف ابن الأثير[3]: «ثم قالوا: إنما تأتوننا بالسحر والبهتان،... وقال أبو طالب في أمْر الصحيفة وأكْلِ ما فيها من ظُلْمٍ وقطيعة رَحِمٍ أبياتا...» قدّم لها جامع الديوان بقوله[4]:

«وقال مُتألّما من تصرّف قومه، مادحًا النبيَّ ـ ﷺ ـ وذاكرًا قصة الصحيفة» ثم أوردها كاملة، لتكشف لنا ـ إلى جانب ما أشارت من أفكار عامة ـ تعريض أبي طالب ببني لؤيّ بن غالب، راميًا إياهم بفساد الخُلق، والجهل والحمق

---

١- انظر في شأن هذا الموقف (السيرة النبوية: ١/ ٣٧٧)، و(الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٠٩ـ٢١٠)، و(الكامل لابن الأثير: ٢/ ٨٩ـ٩٠)، و(خزانة الأدب للبغدادي: ٢/ ٥٨).

٢- (طبقات ابن سعد: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

٣- (الكامل: ٢/ ٩٠).

٤- (الديوان / ٢٥).

والجرب؛ مُنذِرَهم بأن بني هاشم لن تخذل الرسول -ﷺ- أبدًا، بل سيمنعونه بأيدٍ قويةٍ وروحٍ وثّابةٍ لها رصيدُها في المجد والشرف والسيادة والبطولة.

ثم يقسم بالكعبة غير حانث إنهم لن يُفارقوا النبي -ﷺ- حتى يُصَرَّعوا حوْله. وفي ختام قصيدته يدعوهم إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، حتى لا يجلبوا على أنفسهم مَقْتَنا وغضبَنا، فنُضاعفَ لهم العذاب، مع قرابتَهم منّا، وصلتهم بنا؛ على ما جاء في القصيدة[1] (الطويل):

ألا مَنْ لِهَمٍّ آخِرَ اللّيلِ مُنْصِبِ
وشِعبِ العصا من قَومك المُتَشَعِّبِ

وجَرْبَى أراها من لُؤيٍّ بن غالبٍ
متى ما تُزاحِمْها الصَّحيحةُ تَجْرَبِ

إذا قائمٌ في القوم قام بخُطَّةٍ
أقاموا جميعًا ثم صاحوا وأجْلَبُوا

وما ذنْبُ مَنْ يدعو إلى الله وحْدَهُ
ودينٍ قديمٍ أهْلُهُ غَيْرُ خُيَّبِ؟

وما ظُلْمُ مَن يدعو إلى البرِّ والتُّقَي؟
ورَأْبُ الثَّأَى في يومِ لاحينَ مَشْعَبِ

وقد جُرِّبوا فيما مضى غِبَّ أمرِهم
وما عالمٌ أمرًا كمَنْ لم يُجرِّبِ

١- السابق / ٢٥ : ٢٧. والقصيدة تسعة عشر بيتًا.
هذا، «والعُقيْر: بلدة بالبحرين. يخدي له كلُّ مرتم: يسرع له كل ساقط. الطليح: الهزيل. (جنبا نخلة): واديان قرب مكة. المحصَّب: موضع رمْيِ الجمار». هذا، وفي البيت الثالث (إقواء).

وقد كان في أمر الصحيفةِ عِبْرَةٌ
أتــاكَ بهـا مـن عـائـبٍ مُتَعَصِّبِ
محا اللهُ منها كُفْرَهم وعُقوقَهُمْ
ومـا نَقَموا من صادق القولِ مُنْجِبِ
فأصبحَ ما قالوا من الأمـر باطِلاً
ومَـنْ يخْتلِقْ مـا ليس بـالحـقِّ يكْذِبِ
فأمْسى ابنُ عبدِ اللهِ فينا مُصَدَّقًا
على ساخطٍ مـن قَوْمنا غـيْرِ مُعْتَبِ
فـلا تَحْـسِـبُونا خـاذلـين محمَّدًا
لِـــذي غُــرْبــةٍ مـنّــا ولا مُـتَـقَـرِّبِ
سَـتَـمْـنَـعُـه مـنّـا يـدٌ هاشميَّةٌ
مُـرَكَّـبُـهـا في المـجـد خَــيْرُ مُـرَكَّـبِ
ويـنـصـرُهُ اللهُ الــذي هــوَ ربُّـهُ
بـأهـل الـعُـقَـيْرِ أو بِـسُـكَّـان يـثـرِبِ
فـلا والـذي يـخْـدي لـه كـلُّ مُـرْتَمٍ
طَـلـيـحٍ بـجَـنْـبَـيْ نـخْـلَـةٍ فالُمحَصَّبِ
يمينًا صدَقنا اللهَ فيها ولم نكُنْ
لنَـحْـلِـفَ بُـطْـلاً بـالعتيق المُـحَجَّـبِ
نُـفـارقُـهُ حـتـى نُـصَـرَّعَ حَـوْلَـهُ
ومـا بــالُ تكذيبِ الـنَّـبِـيِّ المُـقَـرَّبِ؟!

فيـاقَـومَـنـا لا تـظـلـمـونا فإننا

متى ما نَخَفْ ظُلْمَ العشيرةِ نَغْضَبِ

وكُفُّوا إليكم من فُضولُ حُلومِكُمْ

ولا تـذْهـبـوا مـن رأيـكم كُـلَّ مَذْهَبِ

ولا تبْـــدءُونا بـالظُّـلامـة والأَذى

فَنجْزيكُمُ ضِعْـفًا مـع الأُمِّ والأبِ

هذا، ومن أفضل ما قاله أبو طالب، وأبـرَعِـه، وأقـواه، وأطولهِ ـ لاميّتُه (أو معلقته) التي أنشأها في سني المحاصرة والمقاطعة؛ والتي اهتم كثير من المؤرخين بها؛ مع اختلافهم في عدد أبياتها، وترتيبها، وبيان سبب نظمها، من هؤلاء:

ابن إسحاق[1] الذي عرضها في ٩٤ بيتا، دون شرح لها؛ وإن كان محققو (السيرة) قد اهتموا بتصويب رواياتها، وتوثيق أبياتها، وشرح الكثير من مفرداتها في حواشي صفحاتها. وقد جاء في نهايتها قول ابن هشام (ص/ ٢٨٠): «هذا ما صَحَّ لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها». ثم ذكر ابن إسحاق بعدها أسماء الأعلام التي وردت في هذه اللامية على ما سيأتي.

أما عن سبب نظمها فيقول ابنُ إسحاق (ص/ ٢٧٢) ـ بعد أن أشار إلى تفرّق نفرٍ من قريش يُشوِّهون رسالةَ الرسول ـ ﷺ ـ في موسم حجّهم، حتى انتشر ذكرها في بلاد العرب جميعها ـ:

«فلما خشي ـ أبو طالبٍ دَهْماء العرب (أي العدد الكثير منهم) أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوّذ فيها بِحرَم مكةَ وبمكانِه منها، وتودّد فيها

---

١- (السيرة النبوية: ١/ ٢٧٢ : ٢٨٠).

أشرافَ قومه، وهو على ذلك يُخْبِرُهم وغيرَهم في ذلك من شعر أنه غيرُ مُسْلِمٍ رسول الله - ﷺ - ولا تارِكِه لشيء أبدا حتى يَهْلَكَ دونه».

ومن هؤلاء المؤرخين أيضا ابنُ كَثِيرٍ الذي عرضها[1] في (٩٢) بيتًا؛ دون شرح لها. على أنه نقل في بيان سبب نظمها (ص/٥٣) ما ذكره ابنُ إسحاق من قبل، كما ذكر في نهاية عرضها تعليقَ ابن هشام عليها؛ ثم قال:

«قلت هذه قصيدةٌ عظيمةٌ بليغةٌ جدًّا، لا يستطيعُ يقولها إلاّ من نُسبتْ إليه، وهي أفحلُ من المعلقات السبع، وأبلغُ في تأدية المعنى فيها جميعًا. وقد أوردها الأمويُّ في مغازيه مطوّلةً بزياداتٍ أُخر. والله أعلم».

ومن المؤرخين كذلك أبو هَفّان المهزميّ العبديّ، الذي عرضها[2]؛ - وعددُ أبياتها ثمّة (١١١) بيتا - وشرح الكثير من أبياتها، ثم زاد العلامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم - مصحح الديوان والمُعلِّق عليه - في شرح مفرداتها في حواشي الصفحات الخاصّة بها.

أما عن بيان سبب نظمها، فلم يلتفت أبو هفّان إليه، بَيْدَ أن المصحح قد ذكر - (في الحاشية / ١ص /٢) - ما يأتي:

«ذكر هذه القصيدةَ أكثرُ أهلِ السِّيَر، وشرحها كثيرون... وأما سبب إنشائها فقد اختلف المؤرخون في ذلك؛ فقيل: إنه قالها حين انتشر أمر الرسول - ﷺ - وخاف أبو طالب عليه أن تُعاضِدَ العرب قومَه على قلعه - ﷺ - فلما أنشأها، وتلاها عليهم، وسمعها الأشراف تعوَّذوا بها. وقيل: إنه قالها في الشِّعْب، وفي بعض أبياتها ما يؤيّد ذلك».

هذا، وقد خصّ الأستاذ / جعفر نقدي هذه اللاميّة بالعرض والشرح المُفصّل والمُطْنِب[3].

---

١- في (البداية والنهاية : ٥٣/٣ : ٥٧).

٢- في ((ديوان شيخ الأباطح /٢ : ١٢) الذي جمعه برواية ابن جِنّي.

٣- في مُؤَلَّفه (زهرة الأدباء في شرح لامية شيخ البطحاء / ٧ :٤١).

أما عن بيان سبب نظمها فلم يخرج فيه عمّا قاله العلامة / آل بحر العلوم.

أما البغداديُّ فقد اهتم بها ـ ضمن ما اهتم ـ في موسوعته[1]، وعرض ستّةً وأربعين بيتا منها مشروحة شرحًا دقيقًا موسَّعًا منوّعًا. وقال في تقديمها (ص/٥٧):«والبيتان من قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت لأبي طالب، عاذ فيها بحَرم مكةَ وبمكانه منها، وتودّد فيها إلى أشراف قومه، وأخبر قريشًا أنه غَيْرُ مُسْلِم محمدًا رسول الله ـ ﷺ ـ لأحد أبدًا حتى يَهْلَكَ دونه، ومدحه فيها أيضًا. وقالها في الشِّعب لما اعتزل مع بني هاشم وبني المطلب قريشًا».

ثم قال (ص/ ٥٨) في بيان سبب إنشائها وزمن نظمها ـ بعد أن عرض موقف الأرَضَة من صحيفة المقاطعة، ومواجهة أبي طالب قريشًا على ضوء هذا الحدث الأخير ـ قال:«ففتحوا (أي قريش) الصحيفة فوجدوها كما أخبر به ـ ﷺ ـ وقالوا: هذا سِحْرُ ابن أخيك. وزادهم ذلك بَغْيًا وعُدوانًا؛ فقال أبو طالب يا معشر قريش؛ عَلامَ نُحْصَرُ ونُحْبَسُ؟، وقد بان الأمر، وتبيّن أنكم أهلُ الظلم والقطيعة!. ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة، وقال: اللهم انصرنا على مَنْ ظلمنا، وقطّع أرْحامنا، واستحلَّ ما يحرُمُ عليه منا. ثم انصرف إلى الشِّعب وقال هذه القصيدة».

وبعد أن ذكر تعليق ابن كَثير عليها، وتقريظه لها ـ قال:

«وأحببت أن أُوردَها هنا مُنْتَخَبةً مشروحةً بشرح يُوفِّي المعنى؛ محبّةً في النبي ـ ﷺ ـ ، وهي هذه...»

هذا، وقد عرضها د/ محمد ألتّونجي في مائة وعشرة أبيات، وقدّم لها، وعني بشرح مفرداتها، وبيان اختلاف بعض الروايات في أبياتها، وتلخيص المعنى العام لكثير مما ورد فيها.

---

١- (خزانة الأدب : ٢/٥٥ : ٧٥).

وهأنذا أعرضها هنا حسب روايته لها ـ وسأفيدُ في شرحها؛ بيتًا بيتًا لطولها؛ ممّا وَرَد لها من شروح، وأصْدُرُ عنها، دون تحديدٍ لها، أو فصل بينها؛ تخفيفًا على القاريء. وحسبنا في إرضاء الأمانة هذه الإشارة ـ أعْرِضُها محبَّةً للرسول ـ ﷺ ـ من جهة؛ وتقديرًا لجهود أبي طالب وَنَفسه الطويل فيها، وبراعته في نسْجها، وطاقته البارعةَ، وقوته الخارقة في مجابهة هذا الحشد الذي تألّب عليه، مُنْذُ مَبْعث الرسول ـ ﷺ ـ لِحَدَبه عليه، وحياطته له، ورعايته به في مُناخٍ تتمخّضُ كُلُّ فَيْنَةٍ فيه عن أهوال جِسامٍ ومخاطرَ ومهالكَ تشيبُ لها الولدانُ من جهةٍ أخرى؛ وتتِمَّةً للفائدة لمن يَعنيه هذا الأمرُ من جهة ثالثة دون أن نلغي فرضية عدم صحة نسبة بعض أبياتها إلى أبي طالب مما يظل مفتوحا في وجه التحقيق العلمي.

وها هو ذا جامع الديوان يقدّم لها، ثم يعرضها على ما سيأتي[1] (الطويل):

خليليَّ ما أُذْني لأوَّلِ عاذِلِ
بِصَغْواءِ في حقٍّ ولا عندَ باطلِ[2]

خليليَّ إنَّ الرأيَ ليسَ بِشِرْكَةٍ
ولا نَهْنَهٍ عندَ الأمورِ البَلابلِ[3]

---

١- (الديوان / ٦٣ : ٧٤).

٢- (بصَغْواءِ): بميلاء. والصَّغو: الميل.

٣- (بشِرْكَة): المشاركة والمشاورة. (النَّهْنَه): «الثوبُ الرقيق النّسج الذي لا يمنع النّظر عمَّا خلفه، يريد هنا: الشّفاف».

(البَلابل): «جمع بَلْبال، وهي الأحزان والهموم والوساوس، يريد الأمور المحزنة.

المعنى: بعد أن ذكر... أنه لا يُصغي للعاذلين (في البيت السابق) ذكر هنا سبب ذلك؛ وهو أن الرأي ليس بشركة، أي ربمّا يكون صحيحا من الإنسان وحْده من غير مُشاركة، ولا أنه شفَّافٌ كالثّوب الرقيق النسج، حتى يطّلعَ عليه غيرُ صاحبه، فصاحب الرأي أدْرى به من غيره».

ولمّـا رأيـتُ الـقـومَ لا وُدَّ عندَهُمْ
وقد قَطَعوا كلَّ العُرى والوَسائلِ(١)

وقد صارحونا بالعداوةِ والأذى
وقد طاوَعوا أمرَ العدوِّ المُزايلِ(٢)

وقد حالَفُوا قومًا علينا أظِنَّةً
يعضُّون غيظًا خَلفَنا بالأناملِ(٣)

صَبرتُ لهُمْ نَفسي بسمراءَ سَمحةٍ
وأبيضَ عَضْبٍ من تُراث المقاوِلِ (٤)

وأحْضَرتُ عندَ البيتِ رَهْطي وإخوتي
وأمسكتُ من أثوابِهِ بالوَصائلِ(٥)

قيامًا معًا مستقبلين رِتاجَهُ
لدَي حيثُ يَقضي نُسْكَهُ كلُّ نافلِ (٦)

---

١- (القوم): يقصد أعداء الرسول- ﷺ- من قريش الذي سيُعدّد قبائلهم وبُطونَهم في أثناء القصيدة.
(العرى): جمع عُرْوة (كعروة الكوز مثلا) والمراد بها هنا العهود والمواثيق وصلة الرّحم..
(الوسائل): جمع وسيلة، ما يُتقرّب به إلى الشيء.
٢- (المزايل) : العدوّ المفارق.
٣- (أظِنّة) : متهمين، مفردها : (ظَنين) وهو المتهم، ويقصد بهم بني بكر بن عبد مناف والمعنى: «لماذا يا بني قريش تحالفون أعداءنا، وهم متهمون... مغتاظون منّا، ولكنهم عاجزون عن حربنا»؟.
٤- (صبَرتُ..) أي حبست لهم نفسي. (سَمْراء سمْحة): القناة اللّينة، أي الرمح... (أبيض عَضْبٍ): أي السيف القاطع. (المقاول) : جمع مقْوَل، وهو الملك أو من ملوك حمير؛ قيل: إن هذا السيف الذي أشار إليه، هو من جُملة الهدايا التي أهداها سيفُ بن ذِي يَزَن لأبيه عبد المطلب حين وفد عليه مع وفد من قريش بعد قتله الحبشة».
٥- (رهطي) قومي وعشيرتي. (الوصائل): جمع وصيلة، وهو ما وصل من شيء إلى شيء. وقيل : «الوصائل): ثيابٌ من صُنع اليمن حمراء مخطّطه باللون الأخضر، مفردها الوَصيلة، وبها كسا تُبّع البيت.
٦- (قياما) : قائمين. (الرتاج) : الباب العظيم. (نُسكه كلّ نافل): عبادته كل مقطوّع.

وحيثُ يُنيخُ الأشعرونَ ركابَهُم

بِمَفْضَى السُّيولِ من أسافٍ ونائلِ(١)

مُوسَّمَةَ الأعضادِ أو قَصَراتِها

مُخَيَّسةً بين السَّديس وبازِلِ (٢)

تَرى الوَدْعَ فيها والرُّخامَ وزينةً

بأعناقِها معقودةً كالعثاكلِ(٣)

أعوذُ بربِّ النَّاسِ من كلِّ طاعِنٍ

عَلينا بسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطلِ (٤)

ومِن كاشحٍ يَسْعي لنا بِمَعيبةٍ

ومِن مُلحِقٍ في الدِّين ما لم نُحاولِ(٥)

ثَوْرٍ ومَن أرسي ثَبيرًا مَكانَه

وعَيْرٍ، وراقٍ في حِراءٍ ونازلِ (٦)

---

١- (يُنيخ) : من أنخت البعير (أي يُبرك البعير). (الأشعرون): الذين لم يحلقوا رءوسهم، و«المراد الحجاج المحرمون لأنهم لم يحلقوا رءوسهم في الإحرام». (ركابَهم) الإبل التي جاءوا عليها. (بمَفْضى السّيول): منتهاها. (أساف): صنم كان على الصّفا، (نائل): صنم كان على المروة.

٢- (المُوَسَّمة): هي الإبل الموسومة (المُعلَّمة) بالكيّ. (الأعْضاد) جمع عَضُد، وهو الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف. (القَصَرات): العنق. (مُخَيِّسة) - «ويروي محبَّسة بمعنى واحد، يريد بها الإبل التي حُبست لتُنْحر، وقيل لها. محيّسةٌ لأنها لزمت مكانها ولم تسرح». (السَّديس وبازل) «السديس من الإبل ما دخل في السنة الثامنة. والبازل : ما تمّ له ثماني سنوات ودخل في التاسعة».

٣- «(الوَدْع) : خَرَزات يتحلّى بها الصّبيان . (العثاكل): مفردها العثكول، وهو عنقود التَّمر. والمعنى: وهذه الإبل مُقلّدةٌ بالخَرز والرّخام وأنواع أخرى من الزينة، وهي مرتّبة كترتيب حبّات العثاكيل».

٤- (أعوذ...) أستجير. (المُلِحّ) المواظبُ والمتابع.

٥- (الكاشح): المُضْمر العداوة. (المَعيبة): النقيصة، والمراد (بالدِّين): ما يُدانُ به، وهي السّيرة والعادة عندهم.

٦- «ثَوْر وثَبير وعَيْر وحِراء: جبال بمكة»، وحراء هذا هو الجبل الذي يقال له جبل النور في مكة، وكانت قريش تتحنّث فيه، أي تتعبّد». (ونازل): يُريد به المتعبّد الذي نزل من الجبل بعد رُقيِّه.

وبالبيتِ رُكنِ البيتِ من بطنِ مكّةٍ
وبـــالّلهِ إنَّ اللّهَ لـيـس بـغـافـلِ(١)

وبـالحَـجَـرِ المُـسْـودِّ إذ يَمْسَحونَهُ
إذا اكْتَنَفوهُ بالضُّحى والأصائلِ (٢)

ومَوطيءِ إبراهيمَ في الصّخرِ رَطْبَةً
علـى قَـدمـيـهِ حـافـيًا غـيـرَ نـاعـلِ(٣)

وأَشواطِ بَينَ المَرْوَتَينِ إلى الصَّفا
ومـا فيهما مـن صـورةٍ وتَمـاثـلِ (٤)

ومَـن حـجَّ بيتَ اللّهِ من كلِّ راكبٍ
ومِـن كلِّ ذي نَـذْرٍ ومِـن كلِّ راجـلِ(٥)

وبالمَشْعَرِ الأقصى إذا عَمدوا لهُ
ألالَ إلى مَفْضَى الشِّراج القوابلِ (٦)

---

١- (وبالبيت): أيّ وأعوذ بالبيت.

٢- (يمْسحونَه) : يتبركون به. (اكتنفوه): أحاطوا به. (والأصائل) مفردها الأصيل: وهو قُبيل الغروب.

٣- «المراد بموطىء إبراهيم موضع أثر قدَميْه في الحجر الذي يسمى مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي قام عليه لما دعا الناس إلى الحج ورفع بناء البيت، حين كان إسماعيل يناوله الحجارة».

٤- (المروتان): هي الصفا والمروة على التغليب. (وتماثل): أراد تماثيل وكانت على الكعبة تماثيل وصور وأصنام فألقاها رسول الله - ﷺ- ومعه علي كرّم الله وجهه.

٥- أي وأعوذ بمن حجّ بيت الله.

٦- وأعوذ كذلك (بالمشعر الأقصى): يريد جبل عرفات، والأقصى : الأبعد (إذا عمدوا له): أي قصدوا (الألال) « - بفتح الهمزة - جبل بعرفات يقوم عليه الإمام، من الفعل (ألَّ) أي اجتهد في السير. (مَفْضَى): مُنْتهى. (الشِّراج): مفردها الشِّرج، وهو مسيل الماء. (القوابل): المتقابلة.

وتَـوْقـافِـهـم فـوقَ الجـبـالِ عشيَّةً
يُقيمون بالأيدي صُدورَ الـرَّواحِلِ [1]

ولـيـلـةِ جَـمـعٍ والمـنـازلُ مِـن منىً
ومـا فَوقَـهـا مـن حُـرمـةٍ ومَـنـازلِ [2]

وجَـمْـعٍ إذا مـا المـقْـرُبـاتُ أجـزْنَـهُ
سِراعًا كما يَفْزَعْنَ مِن وقْعِ وابلِ [3]

وبالجَمْرَةِ الكُبرى إذا صَمدوا لها
يَـؤمُّـونَ قَـذْفًـا رأسَـهـا بـالجـنـادِلِ [4]

وكِنْدَةُ إذْ هُمْ بالحِصابِ عَشيَّةً
تُجيزُ بهمْ حُجَّاجُ بكرِ بنِ وائـلِ [5]

حَليفانِ شَدَّا عِقْدَ ما اجْتَمعا لهُ
وردًّا عَليـهِ عـاطـفـاتِ الـوسـائلِ [6]

---

١- (وتَوْقافِهم): أي وُقوفهم. «والمعنى: وهم يقفون على رواحلهم فوق الجبال مساءً استعدادًا للإفاضة من عرفات إلى المزْدَلِفة.

٢- (ليلة جَمْع): ليلة المزدلفة حيث يجتمع الناس فيها. (مِنًى) اسم موضع بمكة... سمي بهذا الاسم لما يُمنى به من دماء ذبائح الحاج، أي يُراق؛ «والمعنى: وليس في ليلة المزدلفة حُرْمةٌ أسمى من حرمة تلك المنازل في مِنًى».

٣- (جَمْع): اسم للمزدلفة. ويُريد بالمَقْرُبات: الإبل المجتمعة. (أجَزْنه سراعًا) قطعنه مسرعات. (كما يفزعن من وقع وابل): أي من وقع المطر الغزير.

٤- (الجَمْرة): موضع رمْي الجمار بمِنًى. والجمرة الكبرى: جمرة العقبة. (صمدوا لها) قصدوها (قذفًا رأسها): الرأس هي الطرف الأعلى. (بالجنادل): يُريد بها جِمارَ الناسك للحج.

٥- (وكِندة): «يُريد قبيلة كِندة، وإنما خصّهم دون القبائل لامتيازهم عن غيرهم بالكثرة. (الحِصاب): محل رمْي الجمار، وهو المحصّب. (تجيز بهم...) أي تَسَيُّرُهم. (وبكر من وائل) القبيلة المعروفة».

٦- (حليفان): أي كندة وبكر بن وائل. (شدَّا عِقد): أي أحكما عقد الشيء الذي... تحالفا لأجله. (ردّا عليه) أي على ذلك الشدّ (عاطفات الوسائل): أي الأسباب التي تُوجب العطفَ والمحبّة.

وحَطْمُهمُ سُمْرَ الرِّماحِ معَ الظُّبا
وإنفاذُهُم ما يَتَّقي كلُّ نابلِ[(١)]

ومَشْيُهمُ حولَ البِسالِ وسَرْحُهُ
وشِبْرِقُهُ وَخْدَ النَّعامِ الجَوافلِ [(٢)]

فهل فوقَ هذا مِن مَعاذٍ لعائذٍ
وهَل من مُعيذٍ يَتَّقي اللّه عادِلِ؟[(٣)]

يُطاعُ بنا الأعدا ووَدُّوا لو آنَّنا
تُسَدُّ بنا أبوابُ تُركٍ وكابُلِ [(٤)]

كذَبْتُمْ وبيتِ اللّهِ نَترُكَ مكَّةً
ونظعَنَ إلاَّ أمرُكُم في بَلابلِ[(٥)]

---

١- (وحَطْمِهُمُ): أي كسرهم: (الظّبا) مفردها ظبة، وهي حدّ السيف أو السنان. (وإنْفاذُهم): إفناؤهم (والنّابل): الضارب بالنّبْل.

٢- (البِسال): أراد البيت الحرام من البسيل وهو من الأضداد. (وسَرْحُه) : السَّرح الشجر العظام لا شوك فيه و(الشّبرق) - بوزن زِبْرج -: نبات ذو شوك، لا تقر به دابّة لخُبْثه. (الوَخْد): السير السريع كَسيْر النّعام (الجوافل): المسرعة. مفردها الجافلة.

٣- (المعاذ): الملجأ . (العائذ): اللاجىء. (المعيذ): العاصم والمُلْجِىء؛ «المعنى: يَستفهم استفهاما إنكاريًّا، فيقول: ليس بعد هذا الملجأ ملجأٌ يُحْتمى به».

٤- (يُطاع بنا) - على البناء للمجهول من الطاعة... والتقدير: أيطاع بأمرنا الأعداء، وهم وَدّوا أن تُملأَ بنا (أبوابُ تركٍ وكابلُ) بسبب خروجنا من مكة وانتقالنا إليهما. و(تُرك وكابُل): صنفان من الأمم غير العرب معروفان. «فكابلُ: بلدة في أفغانستان، هي اليوم عاصمة الدّولة».

٥- (البَلابِل): الوساوس والهموم. والمعنى: لا نظْعن إلا على حال كوْن أمركم في أحْزانٍ وهموم؛ يُهدّدهم بالحرب.

كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ نُبْزَى محمدًا
ولمّا نُطاعِنْ دونَهُ ونُناضِلِ (١)
ونُسْلِمَه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ
ونَذْهُلَ عن أبنائِنا والحَلائلِ(٢)
وينهضَ قَومٌ في الحديدِ إليكُمُ
نُهوضَ الرَّوايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصِلِ (٣)
وحتَّى يُرى ذو الضِّغْنِ يركبُ رَدْعَهُ
منَ الطَّعنِ فِعلَ الأنكَبِ المُتَحامِلِ(٤)
وإنّي لعَمرُ اللهِ إنْ جَدَّ ما أرى
لَتَلْتَبِسَنْ أَسيافُنا بالأماثِلِ (٥)
بكفِّ امرىءٍ مثلِ الشِّهابِ سَمَيْدَعٍ
أخي ثِقَةٍ حامي الحقيقةِ باسلِ(٦)

---

١- (نُبْزَي) بالبناء للمجهول، أي نُسلب ونُغلب ونقهر. «والمعنى: قَسمًا لن نُغلبَ بمحمد، ولم نحارب من أجله بعد.

٢- (ونُسْلمه) : أي لا نُسْلِمه (نَذْهُلَ) ننشغل (والحلائل): مفردها الحَليلة، وهي الزوجة.

٣- «(الرّوايا): الإبل التي تحمل المياه، مفردها الراوية.

(الصلاصل): المـزَادَة ينقل بها الماء، وقيل: بقية الماء. . «والمعنى: وحتى يحملَ رجالُنا عليكم بحديدهم فيُسمعَ لأسْلحتهم صليلٌ كصليل المياه في المزادات حين تنهضُ الدّواب بها».

٤- (الضغن): الحقد (يركب رَدْعَه): يخرّ على وجهه صريعًا ـ والرَّدْع: العنق أي ذات رأسه ـ وقيل: عظم العنق المتّصل بالرأس، وقيل: اللطخ بالدم. (الأنكب): المائل (المتحامل): الجائر.

٥- (لَتَلْتبِسَنْ) : لتختلطنّ . (الأماثل): أفاضل القوم وأشرافهم. «فالعربي يتباهى بأنه لا يُقاتل إلا سادة الأعداء».

٦- (الشهاب): الكوكب المنقضّ؛ أي يمضي المحارب في الحرب مُضيَّ هذا الشهاب. (سَمَيْدع): السيد. المُوطّأ الأكناف. يعني المذلَل النّواحي. الكريم الشريف السخيّ. (باسل): شجاع، ويروى (بكف فتى...). ويريد بهذا الفتى النبي ـ ﷺ ـ (أخي ثقة) ملازم لها: أي مؤتمن، وكان الرسول ـ ﷺ ـ يدعى عند قريش بالأمين.

شُـهـورًا وأيّـامًـا وحَـولاً مُجـرَّمًـا

عَلينـا وتـأتـي حِـجَّـةٌ بعـدَ قـابِـلِ [١]

ومـا تَـرْكُ قَـومٍ، لا أبـالـك، سَيِّدًا

يَحوطُ الذِّمارَ غَيرَ ذَرْبٍ مُواكلِ؟[٢]

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ

ثِمـالُ اليتامى عِصْمةٌ لـلأرامـلِ[٣]

يـلوذُ بـه الـهُـلاّكُ مـن آلِ هاشمٍ

فهُـم عـنـدَهُ في نِـعـمـةٍ وفَـواضـلِ[٤]

لعَمري لقد أجرى أُسَيْدٌ ورهطُهُ

إلى بُغضِـنـا وجـزَّآنـا لآكـلِ [٥]

جـزَتْ رحِـمٌ عنَّا أُسَـيدًا وخالدًا

جـزاءَ مُـسـيءٍ لا يُـؤَخَّـرُ عـاجِـلِ[٦]

---

١- (المُجَرَّم) : التّام الكامل. (الحِجّة): السنة. (القابل) السنة القادمة.

٢- (لا أبالك : كلام يُستعمل كنايةً عن المدح والذم، حَسْب السّياق. (الذّمار) : كل ما يجب على الإنسان حفظه من عرْضٍ وأمثاله.

٣- (الأبيض): السيد الشريف ـ ويقصد الرسول ـ ﷺ ـ (يُستسقى الغمامُ بوجهه): يُدْعي اللهُ أن يمطرهم بسببه. (ثِمال اليتامي) عمادهم وملاذهم. (عصمة) حام ومانع لهن.

٤- (يلوذ به...) يلتجىء إليه ويعوذ به. (الهُلاّك) : الفقراء المُعْدَمونَ. (وفواضل): مفردها الفاضلة وهي النعمة المتقدمة.

٥- (لَعْمري) أي أقسم بحياتي. (أَجْري) من الجري؛ أي أسرع، أو من التجرّي؛ أي جرّآ الناس. (وأُسَيْدُ) : هو أبو العاص بن أمية ... وسيأتي في نهاية القصيدة تعريف ابن اسحاق بمن يرد فيها من أعلام (جزَّآنا): أي قطّعنا أجزاءً.

٦- (جزي فُلانا حقه : قضاه إياه) . (الرّحم) : القرابة. (خالد): أحد أبناء أُسيد. (عاجل) صفة لجزاء فحكمها النصب، وخَفْضُها على الجوار.

وعثمانُ لم يَـرْبَـعْ عَلينا وقُنْفُذٌ

ولـكنْ أطـاعـا أمـرَ تلك القبائلِ [(١)]

أطـاعـا أُبـيًّـا وابـنَ عبـدِ يَغوثهم

ولم يَـرْقُبـا فيـنـا مـقـالَـةَ قـائـلِ[(٢)]

كما قَـد لَقِينا مـن سُبَيع ونَوفَلٍ

وكـلٌّ تَـوَلَّـى مُـعـرِضًـا لم يُـجـامـلِ [(٣)]

فـإن يُلْقَيا أو يُمـكِنِ اللهُ منهما

نَـكِلْ لهُما صـاعًـا بكَيْلِ المُكـايِـلِ[(٤)]

وذاكَ أبـو عمرٍو أبَـى غيرَ بُغضِنا

لِيَظْعَننا في أهـلِ شـاءٍ وجـامـلِ [(٥)]

يُناجي بنا في كلِّ مَمْسىً ومُصْبحٍ

فـنـاجِ أبـا عَـمْـرٍو بنـا ثُـمَّ خـاتِـلِ[(٦)]

---

١- (لم يَرْبَع علينا : أي لم ينتظر ولم يقم. (وعثمان): هو ابن عُبيد الله التَّيْميّ أخو طلحة. (وقُنْفُذٌ). هو ابن عُمَيْر بن جدعان.

٢- (أبيّ) هو ابن شريق الثّقفيّ، ويقال له الأخنس، (وابن عبد يغوث) هو: ابن وهب بن عبد مناف بن زُهْرة، واسمه الأسود، وكان من المستهزئين برسول الله - ﷺ - ومات كافرًا».

٣- (سُبَيّع) بن خالد أخو بلحارث بن فهر . (ونوفل) بنُ خُويْلد بن أسد بن عبد العزّى بن قُصيّ أخو خديجة - رضي الله عنها - زوج النبي - ﷺ - وكان من شياطين قريش. (لم يُجامل): لم يعامل بالجميل؛ أي أننا لقينا من سُبَيْع ونوفل ما لقيناه من أولئك الأعداء، وقد تولّى كل منهما مُعْرِضًا عنا، ولم يُعاملانا بالجميل.

٤- (الصاع) : مكيال . (المكايل): المماثل؛ والمعنى: «فإن لقيناهم بحرب كِلْنا لهم ماكالوه، أي نُعاملهم - لمعاملتهم إيّانا - بالإعراض عنهم وعدم نصرهم.

٥- (أبو عمرو): قُرَظَةُ بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف. وكان يُقال ابن أَمَة عبد المطلب، فاستكبر أبو طالب ابن أَمَة أبيه يفعل به هذا الفعل. (ليظعننا): يدفعنا على الرحل. (أبي غير بُغضنا): لم يُرد غير بُغضنا. (الشّاء): جمع شاة. (الجامل): جماعة الجمال.

٦- (يُناجي بنا): يتكلم بنا سرًّا. (خاتل): من المخاتلة وهي الخداع.

ويُقْسِمُنا بالله ما إن يَغُشَّنا
بلى قد نراهُ جَهرةً غيرَ حائلِ[(١)]

أضاقَ عليه بُغْضُنا كلَّ تَلْعةٍ
منَ الأرض بينَ أخشُبٍ فمَجادلِ[(٢)]

وسائلْ أبا الوَليدِ: ماذا حَبَوْتَنا
بسَعْيِكَ فينا مُعْرِضًا كالمُخاتِلِ؟[(٣)]

وكنتَ امرأً ممَّنْ يُعاشُ برأيه
ورحمتُه فينا ولستَ بجاهلِ[(٤)]

أعُتْبةُ، لا تَسمعْ بنا قولَ كاشحٍ
حَسودٍ كذوبٍ مُبغِضٍ ذي دَغاوُلِ[(٥)]

وقد خِفتُ إنْ لم تَزْجُرَنْهُمْ وتَرْعَوُوا
تُلاقي ونَلْقَى منك إحْدَى البَلابلِ[(٦)]

---

١- (يُقْسمنا): يحلف لنا. (إن): زائدة لتأكيد ما النافية. (بلي): حرف إيحاب، يريد بها تكذيب يمين أبي عمرو في عدم الغش. (غير حائل): أي لا يحول عن يمينه؛ و«المعنى: يُقسم لنا أنه لن يخدعنا، لكن هذا الادّعاء يُكذّبه ما يُظهره من غير أن يمنعه»؛ أي يريد أن نعتقد أنه لا يخادعنا.

٢- (التَّلْعة) ما شَرُف وارتفع من الأرض . (أضاق): ضَيّق. وأراد بالأخشب: الأخاشب؛ وهي جبال مكة. و(المجادل): القصور والحصون المبنية على قمم الجبال؛ «كأنه يريد: ما بين جبال مكة فقصور الشام والعراق».

٣- (أبو الوليد): عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان من أبطال قريش (ماذا حَبَوْتنا): ماذا أعطيتنا. (المخاتل): المخادع؛ و«المعنى: اسأل عتبة عن الذي أحسنه إلينا، وهو معرض عنا كالمخادع».

٤- (وكنت امرأً) الواو حالية، أيْ وحالك أنك ممن يُستنار برأيهم، ويعمل بنصائحهم، ويؤخذ بحصافتهم.

٥- (كاشح): حاسِد أو عدوّ. (دَغاوُل): لا واحد لها من لفظها؛ أي البلايا والدّواهي.

٦- (تزْجُرَنْهم): تمنعهم. (تَرْعَوْوا): تكفّوا. (البلابل): الوساوس والهموم.

وَمَــرَّ أبــو سُـفيـانَ عنِّــيَ مُعْرِضًا
كما مَـرَّ قَيْـلٌ مِـن عِـظـامِ المَقـاوِلِ [١]
يَـفـرُّ إلى نَجْـدٍ وبَـــرْدِ ميـاهِـهِ
ويَـزْعُـمُ أنِّي لستُ عنكُم بغافلِ [٢]
وأَعـلـمُ أنْ لا غـافلٌ عـن مَساءَةٍ
كفاك الـعـدوُّ عنـدَ حـقٍّ وبـاطـلِ [٣]
فميلوا عَلينا كُلُّكُمْ؛ إنَّ مَيْلَكُمْ
سَـواءٌ علينـا والـريـاحُ بـهـاطـلِ [٤]
يـخـبرُنـا فِـعـلَ المُنـاصِـحِ أنَّــهُ
شَفيقٌ ويُخفي عارماتِ الدَّواخلِ [٥]
أمُطْعَمُ لم أخذُلْكَ في يومِ نجدةٍ
ولا عندَ تلك المُعْظماتِ الجلائلِ [٦]
ولا يـومِ خَصـمٍ إذْ أتَـوْكَ ألِـدَّةٌ
أُولي جَدَلٍ مثلَ الخَصومِ المُساجِلِ [٧]

١- أبو سفيان بن حرب، واسمه صخر من أشراف قريش. (القَيْل): لقب ملوك اليمن؛ والمعني: مرّ أبو سفيان غير عابىء بي مُتكبِّرا كتكبّر أقيال اليمن.

٢- أي يهرب من مواجهتنا ، ويظنّ أن سلوكه غيرُ معروف لنا.

٣- «أي أنني واثق من الإساءة لا يغفل عنها أحد، وأن مطمع العدّو واضحٌ، فلا تطمع أن يُعينك على حقٍّ أو على باطل».

٤- (سواء) : متساوٍ. (هاطل): صفة للمطر المقدرة. «والمعنى: لايهمُّنا إن هاجمتمونا أوّلاً، كل هذا سواء، وليس هجومُكم علينا أكثرَ من تتابع المطر الذي لا يضرّ».

٥- يُخْبرنا أنه يفعل فعل المخلص، ويخفي (عارمات): خبيثات: (الدواخل): مفردها الداخلة، وهي النيّة المضمرة.

٦- (مُطْعَم): هو ابنُ عديٍّ بن نوفل بن عبد مناف من أبطال قريش. يخاطب الشاعر مُطْعَمًا فيقول: إني لم أخْذُلك في يوم نُصْرتك ولا في مصائبك الكبيرة.

٧- (ألِدَّة): مفردها لَديد، وهو الشديد الخصومة. (المساجل): المُباري والمُعارض في الخُصومة.

أمطعمُ إنَّ القـوم ساموك خُطَّةً

وإنِّي متـى أُوكَــلْ فلستُ بـوائـلِ[1]

جَزى اللّهُ عنّا عبدَ شَمسٍ ونَوفلاً

عُقـوبـةَ شَـرٍّ عـاجـلاً غـيرَ آجِـلِ [2]

بميـزانِ قِسْـطٍ لا يَغيضُ شَعيرةً

لـه شـاهـدٌ مِـن نفسهِ حقُّ عـادلِ[3]

لقد سَفَهتْ أحـلامُ قَـوم تبدَّلوا

بَنـى خَـلَـفٍ قَيضًـا بنا والغَياطلِ [4]

ونحنُ الصَّميمُ مِن ذُؤابـةِ هاشم

وآلِ قُصَيٍّ في الخُطـوبِ الأوائـلِ[5]

وكـانَ لنا حـوضُ السِّقايةِ فيهمُ

ونحنُ الذُّرى منهُمْ وفوقَ الكواهلِ [6]

---

١- (ساموك خُطّة): يعني كلّفوك (وإنيّ متى أُوكَلْ) : يعني أغلب. (الوائل) : الملتجىء؛ (والمعنى يا مطعم إني ما خذلتك في خطوبك، وما تركتك في مخاصمتك؛ فكيف تخذلُني وتتركني، وأن القوم قد كلّفوك خُطّةَ ضيْم، وإني إذا غلبت فلا ألجأ إلى أحد».

٢- (جزى الله...): أي كافأهم. (وعبد شمس ونوفل): ابنا جدّه عبد مناف، ويُريد بهما البطنين من بينهما لأنهما وافقا قريشًا في العداء.

٣- (بميزان قِسط): أي عدْل. (لا يغيض شَعيرة): لا ينقص. (الشاهد): اللسان؛ «والمعنى: جزى الله عبْد شمس ونوفلاً بما يستحقان من غير نقص أو زيادة».

٤- (سفهتْ أحْلامُهم): ضعفت عقولُهم. (بنو خلف). بطن من قريش (قيْضًا) : أي عِوضا. (والغياطل): قومٌ منسوبون إلى غيْطلة، وهي امرأة كاهنة من بني مرة بن عبد مناة بن كنانة، وهم أيضا بطن من قريش؛ يُريد بهم بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لُؤَيّ.

٥- (الصّميمُ) : الخالص . (من ذُؤابة هاشم): أي أعاليهم، وهاشم هو جدّه الأعلى. (وقُصيّ) هو ابن كلاب بن مرّة أبو عبد مناف (الخطوب الأوائل): القديمة.

٦- (حَوْض السّقاية) : يعني سِقاية الحج . (الذّرى): أعلى الشيء؛ يريد أبناء غالب، وغالب: هو ابن فهر بن مالك جدّه الأعلى. (الكواهل): مفردها الكاهل وهو أعلى الظهر مما يلي العنق.

فما أدركـوا ذَحْـلاً ولا سَفكوا دَمًا

ولا حَـالـفـوا إلاَّ شِــرارَ القبائلِ(١)

بَـنـي أَمَـــةٍ مجـنـونـةٍ هِـنْـدَكـيّـةٍ

بَني جُمَحٍ عُبَيدَ قَيسِ بنِ عاقلِ (٢)

وسـهـمٌ ومخــزومٌ تَمـالَـوْا وأَلَّـبُـوا

عَلينا العِدا مِن كلِّ طِمْلٍ وخاملِ(٣)

وشائظُ كانت فيۡ لـؤيٍّ بنِ غالبٍ

نفـاهُـمْ إليـنـا كلُّ صَـقْـرٍ حُـلاحِـل(٤)

ورَهْطُ نُفَيلٍ شرُّ مَن وَطئَ الحصى

وألأَمُ حـافٍ مـن مـعـدٍّ ونـاعـلِ(٥)

أعبـدَ منـافٍ أنْـتُـمُ خيرُ قَومكُمْ

فلا تُشْرِكوا فيۡ أمـرِكم كلَّ واغـلِ(٦)

---

١- أي هؤلاء القوم المُسَفَّه أحْلامهم بنو خلف والغياطل (ذَحْلا): ثأرًا. (حالفوا) عاهدوا.

٢- (بني أمَةِ) منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف، والتقدير: أعني بشرار القبائل بني أمة. (مجنونة) مُصابة فيۡ عقلها بالجنون (هندكيّة) : لغة فيۡ هندية، أي من الهند غير عربية. (بنوجمح): قبيلة من قريش. (قيس بن عاقل) : من رجال قريش، وكانت أمُّ جمح أَمَته.

٣- (سهم ومخزوم): هما بطنان من قريش، ومخزوم هو أبو البطن؛ وهو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لُؤيّ. (تمالَوْا) : أي اتّحدوا. (وألَّبُوا) : جمعوا الجموع. (الطِّمْلُ): الفاحش من الرجال . (والخامل): الرجل الذي لم يعرفه أحد.

٤- (الوشائظ): السِّفْلة، من الوَشيظة أي ما تعلّق بالقوم وليس منهم. (نفاهم): ألقاهم. (والصقر). استعير هنا للبطل السريع الحركة (الحلاحل): السيد الشجاع.

٥- (رهط نُفيل): قومه، وهو نفيل بن عبد العزّى؛ «والمعنى: وقومُ نفيل شَرُّ الناسِ قاطبةً، وأَسْوأُ أهل معدّ الحُفاةَ والنّاعلين»، أي جميعهم.

٦- (أعَبْد مناف) يقصد أبناءه الأربعة وأولادهم؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو عبد شمس، وبنو نوفل. (الواغل) : الأجنبّي الدّاخل فيۡ القوم وليس منهم.

فقد خِفتُ إنْ لم يُصْلحِ اللهُ أمْرَكُمْ

تكونوا كما كانَتْ أحاديثُ وائلِ[١]

لَعَمري لقَدْ أُوْهِنْتُمْ وعَجزتُمُ

وجِئتُمْ بأمرٍ مُخطئٍ للمَفاصلِ[٢]

وكُنْتُمْ قَديمًا حَطْبَ قِدْرٍ فأنتُمُ

ألانَ حِطابُ أَقْدُرٍ ومَراجِلِ[٣]

لِيَهْنئْ بَني عبدِ منافٍ عُقوقُها

وخَذْلانُها، وَتَرْكُنا في المعاقلِ [٤]

فإنْ يكُ قَومٌ سرَّهُمْ ما صَنَعْتُمُ

ستَحْتَلِبوها لاقحًا غيرَ باهلِ[٥]

فبلِّغْ قُصَيًّا أنْ سَيُنْشَرُ أمرُنا

وبَشِّرْ قُصيًّا بعدَنا بالتَّخاذُلِ[٦]

---

١- يُشير إلى ما كان بين بكر وتغلب من حروب طاحنة.

٢- «يُقال في المثل لمن لم يُصب الرّشد والحقيقة جاء بأمر مخطيء للمفاصل»: أي بعيد عن الصواب. والصورة في قاطع اللحم الذي يبدأ بالمفصل، فإن لم يُصبْ أخطأ وأفسد.

٣- (حَطْب): جمع حاطب وهو الجامع للحطب. (ألان) أي الآن. (أقدر): جمع قلّة للقدْر. (ومراجل) جمع مرْجل، عطف تفسير على أقدر؛ والمعنى: أنكم كنتم قبل اليوم متحدين حول قِدْرٍ واحدة، وصِرْتم اليوم مختلفين متفرقين حول أقدر ومراجل».

٤- (العقوق): القطيعة. (المعاقل): المكان المحصّن، ويقصد به (الشِّعب). (خَذْلاننا) تركهم نصرنا.

٥- (ستحتلبوها): أي الحرب. (لاقحا)، من اللِّقحة: الناقة الكثيرة اللبن. (غير باهل): الباهل الناقة التي لا صِرار على ضَرْعها يحْلبُها كل من أراد حلْبَها، والصِّرار: ما يشدّ به الضرع لئلا يحلبَها أحدٌ ولا يرضعها السقب. وسميت باهلة لأنها بهلت إبلها فلم تشدّ أخْلافها. وفي البيت تهديد بحرب ضروس مُجرَّبة.

٦- (وبشرّ قُصَيًّا) التبشير هنا على سبيل التهكم. وقوله (بعدنا): أي بعد انتشار أمرنا.

وَلـو طَـرقـتْ لـيـلاً قُصيًّا عَظيمةٌ
إذًا ما لجأنا دونَـهُـم فِي المداخلِ[١]

ولـو صُدِقوا ضَربًا خـلالَ بُيوتِهم
لَكُنَّا أُسِيَ عندَ النِّساءِ المَطافلِ[٢]

فـإنْ تـكُ كعبٌ مـن لـؤيٍّ تجمَّعتْ
فـلابُـدَّ يـومًـا مـرَّةً مِـنْ تَـزايُـلِ[٣]

وإنْ تَـكُ كعبٌ مـن كـعـوبٍ كثيرةٍ
فـلابـدَّ يـومًـا أنَّـهـا فِي مَجـاهِـلِ[٤]

وكـلُّ صـديقٍ وابـنُ أُخـتٍ نَـعُـدُّهُ
وجـدْنـا لـعَـمري غِـبَّـهُ غـيرَ طـائـلِ[٥]

سِوى أنَّ رَهْطًا مِن كلابِ بنِ مُرَّةٍ
بَـراءٌ إلـيـنـا مـن مَـعَـقَّـةِ خـاذلِ[٦]

---

١- (العظيمة): النّازلة والمصيبة. (المداخل): جمع مَدْخل كالبيوت والحصون؛ (والمعني: والمؤسف أن آل قصيّ كانوا إذا حلّت بنا مصيبة اختبؤوا في منازلهم؛ بينما نحن لا نفعل ذلك»، ولا نرضي به.

٢- (خلال) : بين . (الأُسى) : مفردها الأُسْوة، وهي ما يؤتَسى ويقتدى به (المطافل) جمع مِطْفل بمعنى ذات الطفل؛ والمعنى: لو أن أعداءهم أرادوا قتالَهم بين بيوتهم لشاركنا قُصيًّا في الدفاع والحفاظ على نسائهم.

٣- (كعب) : هم بنو كعب بن لُؤَيّ (التَّزايل): التّفَرّق.

٤- (كعوب): مفردها كعب، وهو الشرف (مجازا). أي كل شيء علا وارتفع. (المجاهل): مفردها المجهل، وهو موضع الجهل، وهي في مجاهل إن حاربت محمدًا ـ ﷺ ـ.

٥- (الغِبّ) العاقبة (غير طائل) أيّ لا مزيّة فيه ولا غناء.

٦- (براءٌ): أي بريئون. (المعقّة): مصدر بمعنى العقوق. والإيذاء: (خاذل) من خَذَله إذا ترك نُصْرته. (وكلاب بن مرة) أي ابن كعب بن لُؤَيّ بن غالب.

بَني اسَـدٍ لا تُطرِفُنَّ على القَذى

إذا لم يقلْ بالحقِّ مِقْوَلُ قائلِ[(١)]

فنعْمَ ابنُ أُختِ القومِ غيرَ مُكذَّبٍ

زُهيرٌ حُساماً مُفرداً من حَمائلِ[(٢)]

أَشَمُّ منَ الشُّمِّ البهاليلِ يَنْتَمي

إلى حسَبٍ في حَوْمةِ المَجْدِ فاضلِ[(٣)]

لعَمري لقد كَلِفْتُ وَجْداً بأحمدٍ

وإخوَتهِ دأبَ المُحبِّ المُواصِلِ[(٤)]

أُقيمُ على نصرِ النبيِّ محمدٍ

أقاتلُ عنهُ بالقَنا والقنابلِ[(٥)]

فلا زالَ في الدُّنيا جَمالاً لأهلِها

وزَيْناً لما ولاَّهُ رَبُّ المشاكِلِ

---

١- (لا تُطْرِفُنّ): لا تُطْبِقُنَّ أجفانكم على ما يؤذيها. (المِقول): اللسان.

٢- (زُهير) : هو ابن أمية المخزومي أخو أم المؤمنين أم سلمة، زوج النبي - ﷺ - وكان أحد الذين سَعَوْا في نقض الصحيفة. (حساماً مفرداً): أي سيْفاً فريداً في بابه لا يُشبهُهُ حسامٌ. (الحمائل): هي ما يعلّق به السيف؛ ويريد بها هنا الشرف الذي يُنسب إليه زهير.

٣- (أشم) من الشمم نعت لزهير، ويوصف بالأشم كل رئيس ذي أنفة (الشمّ): جمع أشم. (البهاليل): جمع بُهلول، وهو الشريف العظيم. (ينتمي) : ينتسب. (الحسب): مفاخر الإنسان من نفسه أو من آبائه. و(حومة المجد): معظمها.

٤- لعمري : لحياتي قسمي (كَلِفْتُ): أحْببتُ حُبًّا شديداً. (الوجْد): شدة الحبّ. (إخوته) : يُريد أولاده الذين كانوا كإخوته؛ وهم: جعفر وعقيل وعلي. (دأب المحب): عادته وطبعه.

٥- (القنا): الرماح. (القنابل): مفردها: القَنْبَل والقنْبلة، وهي الطائفة من الناس والخيل.

فمَنْ مثلُهُ في النَّاسِ أيُّ مُؤَمَّلٍ
إذا قاسَه الحُكَّامُ عندَ التَّفاضُلِ[١]

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ
يُوالي إلهًا ليسَ عنهُ بغافلِ

فأيَّدَه ربُّ العبّادِ بنصرهِ
وأظهرَ دِينًا حقُّه غيرُ ناصلِ[٢]

فواللهِ لولا أنْ أَجيءَ بسُبَّةٍ
تَجُرُّ على أشياخِنا في المَحافلِ [٣]

لَكُنَّا اتَّبعْناهُ على كلِّ حالةٍ
منَ الدَّهرِ جِدًا غيرَ قولِ التَّهازُلِ

لقد عَلموا أنَّ ابْنَنا لا مُكذَّبٌ
لَدَيهم ولا يُعْنَى بقَوْلِ الأباطلِ

رجالٌ كرامٌ غيرُ مِيلٍ نَماهُمُ
إلى الغُرِّ آباءٌ كرامُ المَخاصلِ[٤]

دَفَعناهُمُ حتَّى تَبدَّدَ جَمعُهُمْ
وحُسِّرَ عنّا كلُّ باغٍ وجاهلِ [٥]

---

١- (فمن مثله): فليس مثله. (المؤمّل): المرجُوّ لكلّ خير. (التّفاضل): التّغالب بالفضل.
٢- (غير ناصل): غير زائل؛ (والمعنى: أرجو من الله أن يؤيّده بنصر من عنده، ويظهر دينًا ثابتًا مؤيدًا.
٣- (تجرُّ): تجني. (الأشياخ): الآباء والأجداد.
٤- (ميل): مفردها أَمْيل، وهو الجبان. (نماهم): رفعهم. (الغُرّ): السادة الأشراف، مفردها الأغر. (المخَاصل): مفردها مِخْصل، وهو السيف القاطع
٥- (دفعناهم): أبْعدناهم. (وحُسِّر): أُوقع في الحسرة.

شَـبـابٌ مـنَ المُـطَّـيَّـبـين وهاشم
كبِيضِ السُّيوفِ بينَ أيدي الصَّياقلِ[1]

بِضَربٍ تَرى الفِتيانَ فيهِ كأنَّهُم
ضَـواري أسـودٍ فـوقَ لحـمٍ خَـرادلِ [2]

ولـكـنَّـنـا نـسـلٌ كــرامٌ لـسـادةٍ
بهم نَعْتلي الأقـوامَ عندَ التَّطاوُلِ[3]

سَيَعْلَمُ اهلُ الضِّغْنِ أيِّي وأيُّهُمْ
يـفـوزُ ويعلـو في لـيـالٍ قـلائـلِ [4]

وأيُّــهُــمُ مـنِّي ومـنْـهُـم بسيفهِ
يُلاقي إذا ما حانَ وقتُ التَّنازُلِ[5]

ومَنْ ذا يمَلُّ الحربَ مني ومِنْهمُ
ويُـحْـمَـدُ في الآفـاقِ مِـن قَـولِ قائلِ؟

فـأصـبـحَ فينا أحـمـدٌ في أُرومــةٍ
تُـقـصِّـرُ عنها سَـورةُ المُـتَـطـاوِلِ[6]

١- المُطيّبون من قُريش هم: بنو عبد مناف بن قصيّ، وبنو أسد بن عبد العزّى بن قَصيّ، وبنو زُهرة بن كِلاب، وبنو تميم بن مُرَّة، وبنو الحارث بن فهر؛ فهم يدٌ واحدة في التناصر. (الصَّياقل) : مفردها الصَّيقل، وهو الذي يعمل السيوف ويُصْقلها.

٢- (الضّواري): مفردها الضّاري كالنّمر والأسد من السباع، وهو المتعود منها (خَرادل): القطع الصغيرة، أي تقطّع كالخرادل.

٣- (التّطاول): التفاخر، أي نحن من ذُرّيّة أسْياد، نفوق الناس عند المباهاة.

٤- (أهل الضّغن): أهل الحقد والحسد والعداوة الكامنة.

٥- (التنازل): المنازلة والمبارزة في الحرب.

٦- (الأُرومة): الأصل. (سورة المتطاول): شدة المغالب وبطشه.

كـأنّي بـهِ فـوقَ الجيـادِ يقودُها

إلى معشرٍ زاغـوا إلى كلِّ باطلِ [1]

وَجُـدْتُ بنفسي دونَـهُ وحَمَيتُهُ

ودافَـعْـتُ عنه بالطُّلى والكلاكلِ [2]

ولا شَـكَّ أنَّ اللّهَ رافـعُ أمـرِهِ

ومُعليهِ في الدُّنيا ويـومَ التَّجادُلِ [3]

وها هي أسماء الأعلام التي وردت في هذه المعلّقة أورِدُها زيادةً في الفائدة لمن ينشُدُها، حسب رواية ابن إسحاق لها بعد ذكره لهذه اللاميّة[4]:

«قال ابن إسحاق: والغياطل: من بني سهم بن عمرو بنُ هُصَيص، وأبو سفيان بنُ حرب بن أُمَيَّة. ومُطعم بنُ عديّ بن نَوْفل بن عبد مناف. وزُهير بنُ أبي أُمَيَّة بن المُغيرة بن عبد اللّه بن عُمرَ بن مخزوم، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب. قال ابن إسحاق: وأسيد، وبِكْرهُ: عتّابُ بن أسيد بن أبي العيص بن أُمَيَّة بن عبدَ شمس بن عبَد مناف بن قصيّ. وعثمانُ بنُ عُبيد اللّه، أخو طلحة بن عُبيد اللّه التَّيميّ. وقُنفذُ بنُ عُمير بن جُدْعان بن عَمْرُ بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة. وأبو الوليد عُتْبةُ بنُ ربيعة. وأُبيُّ الأخنس بنُ شريق الثقفيّ، حليف بني زهرة بن كلاب.

قال ابن هشام: وإنما سمي الأخنس. لأنه خَنس بالقوم يوم بدْر، وإنما اسمُه أُبيُّ، وهو من بني عِلاج، وهو عِلاج بن أبي سَلَمة بن عوْف بن عُقْبة. والأسودُ بنُ عبَدِ يغوثَ بنِ وَهْب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب. وسُبَيعُ

١- (يقودها) : دلالة على زعامته وقيادته (زاغوا): مالوا.

٢- (وَجُدْتُ بنفسي) : سَخَوْتُ بها وضحيّت بها. (دُونه): أمامه . (الطُّلى) مُفْردُها طُلْيةٌ، وهي العنق (الكلاكل): عظام الصدر.

٣- (يوم التجادل): يوم القيامة.

٤- (السيرة النبوية : ١/٢٨١ ـ ٢٨٢).

بنُ خالد، أخو بَلْحارث بن فِهرْ. ونوفلُ بنُ خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ، وهو ابن العَدَويَّة. وكان من شياطين قُرَيش، وهو الذي قَرَن بين أبي بكر الصدّيق وطَلْحة بن عُبيد الله - رضي الله عنهما - في حَبْل حين أسلما، فبذلك كانا يُسميَّان القَرينين؛ قتله عليُّ بنُ أبي طالب - عليه السلام - يوم بدرْ. وأبو عمرو قُرظَةُ بن عبد عمرو ابن نوفل بن عبد مناف. «وقوم علينا أظنَّة»: بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، فهؤلاء الذين عدّد أبو طالب في شعره من العرب».

## المبحث الثالث عشر

## نقض صحيفة المقاطعة والإفراج عن المحاصرين في الشِّعب[1]

تُفيدنا تلك المصادر المشار إليها في الحاشية أسفله ـ أن قريشًا حينما ازدادت بغيًا وعُدوانًا بعد أن عرفوا ما حلّ بالصحيفة من أكل الأَرَضَة لها، ورَمَوْا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبهتان والسحر بشأنها؛ تلاوم رجالٌ من قريش على ما صنعوا ببني هاشم؛ وتذكّروا ما حاق بمنصور بن عِكرمة العَبْدَري الذي شُلَّتْ يدُه لكتابته هذه الصحيفة، فقاموا في نقضها. ولنترك ابنَ إسحاق يروي لنا هذه الأحداث حيث يقول[2]:

«ولم يبْلُ فيها أحدٌ أَحْسَنَ من بلاء هشام بنِ عمرو بنِ ربيعةَ بنِ الحارث... وذلك أنه كان ابنَ أخي نَضْلةَ بنِ هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشامٌ لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان... يأتي بالبعير، وبنو هاشمٍ وبنو المطلب في الشِّعْب ليلاً، قد أوقره طعاما... فيدخل في الشِّعب عليهم...

ثم إنه مشى إلى زُهيرِ بن أبي أميّةَ بن المُغيرة... بن مخزوم، وكانت أمّهُ عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زُهَيرُ؛ أَقد رضيت أن تأكلَ الطعامَ، وتلبِسَ الثيابَ، وتنكحَ النساءَ؛ وأخوالُك حيث قد علمت... قال: وَيْحَكَ يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمْتُ في نقضها حتى أنقضَها، فقال: قد وجدتُ رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زُهيرٌ: أَبْغنا رجلاً ثالثا.

---

١- انظر في ذلك : (السيرة النبوية : ٣٧٤/١: ٣٨٠)، و(الطبقات الكبرى: ٢١٠/١)، و(أنساب الأشراف : ٢٣٥/١ـ ٢٣٦)، و(تاريخ الطبري: ٣٤١/٢ ـ ٣٤٢)، و(مروج الذهب: ١٩٤/٢)، و(البداية والنهاية: ٨٤/٣ ـ ٨٥، ٩٥ : ٩٨)، و(الكامل في التاريخ: ٨٨/٢ ـ ٨٩)، و(خزانة الأدب للبغدادي:٨٥/٢).

٢- السيرة: ٣٧٤/١ : ٣٧٦).

فذهب (أي هشام) إلى المُطْعَم بنِ عديّ بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مُطعَمُ؛ أقد رضيتَ أن يهْلَكَ بَطْنان من بني عبد مناف، وأنتَ شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سِراعًا؛ قال: وَيْحك! فماذا أصنع؟... قال: أبغنا رابعًا.

فذهب (هشام) إلى البَخْتريّ بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمُطْعَم بن عديٍّ، فقال: وهل من أحد يُعين على هذا؟ قال: نعم... قال أبْغنا خامسًا.

فذهب (هشام) إلى زَمْعةَ بنِ الأسْود بن المطلب بن أسد، فكلّمه، وذكر له قرابتهم وحقَّهُمْ، فقال لَه: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم.

فاتّعَدوا خَطْم الحُجون (أي مقدمه) ليلاً بأعلى مكةَ، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير:

أنا أبدؤكم فأكون أوّلَ من يتكلّم. فلما أصبحوا غَدَوْا إلى أنْديتهم، وغدا زُهيرُ ابنُ أبي أُميّةَ، عليه حُلّةٌ؛ فطاف بالبيت سبْعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهلَ مكّةَ، أنأكلُ الطعامَ، ونلبسُ الثيابَ، وبنو هاشم هَلْكى لا يُباعُ ولا يُبْتاع منهم، والله لا أقعدُ حتى تُشَقَّ هذه الصحيفةُ القاطعةُ الظالمة.

قال أبو جهل: ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبتَ واللهِ لا تُشَقّ؛ قال زمعةَ ابن الأسود: أنت واللهِ أكذب، ما رضينا كتابَها حيث كتبت؛ قال البَخْترِيّ: صدق زَمْعةُ، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقرُّ به.

قال المُطْعَمُ: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كُتب فيها؛ قال هشام بن عمرو نحْوًا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضيَ بليلٍ، تُشُوورَ فيه بغير هذا المكان... فقام المُطْعَمُ إلى الصحيفة ليَشقَّها، فوجد الأرضَة قد أكلتها، إلا (باسمك اللهم)...».

ويضيف ابن سعد مُشيدًا بصنيع هؤلاء الرجال، قائلاً[1]:

«... ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا. فلما رأت قُرَيْشٌ ذلك سُقِطَ في أيديهم، وعرفوا أن لن يُسلموهم. وكان خروجهم من الشِّعْب في السنة العاشرة» أي من مبعث الرسول ـ ﷺ ـ.

وهكذا انقشعت هذه الغُمّة التي طال أمدها ثلاثَ سنوات، والتي كانت فيها أيامُ بني هاشم وبني المطلب ولياليهم سواء، لا يروْن فيها ضوْءًا إلا بريقَ سيوفهم التي امتشقوها حمايةً للرسول ـ ﷺ ـ بَيْدَ أنهم مع هذا العناء الذي تَخرُّ له الجبال هدًّا، قد خرجوا منتصرين ظافرين؛ وحسبهم فوزًا أَنْ رُدَّ كَيْدُ قريش إلى نحورهم، ولم ينالوا من الرسول ـ ﷺ ـ شيئًا يشبع سغبهم، أو يروي غُلَّتهم قطّ. وحُقَّ لأبي طالب بعد ذلك كلِّه أن يُزْهَى بمَنْعه رسولَ الله ـ ﷺ ـ وحياطتِه، مُبْتهجًا بموقفه؛ مُفتخرًا بقوته وشجاعته؛ مُعْتَزًّا بشموخه وكبريائه في وقايته له ودفاعه عنه، وذلك في قوله[2] (المتقارب):

مَنَعنا الرسولَ رسولَ المليكِ
ببيضٍ تلألأُ لَمْعَ البروقِ
بضرْبٍ يُذَبِّبُ دُون النِّهابِ
حِذارَ الوثائرِ والخنفقيقِ
أَذُبُّ وأحْمي رسُولَ المليكِ
حِمايةَ حانٍ عليه شَفيقِ

---

١- (الطبقات: ١/ ٢١٠).

٢- (الديوان/ ٥٩) والمقطعة خمسة أبيات «والوثائر: مفردها الوثيرة، من الوَثر وهو الوطء. والخنفقيق: الداهية». و«البِكار: مفردها البكرة، وهي الأنثى من الإبل. الفنيق: الفحل المكّرم عند أهله، لا يؤذى ولا يركب لكرامته». و«الغيل: عَرين الأسد».

وما إنْ أَدُبُّ لأعدائه
دَبيبَ البِكارِ حِذارَ الفَنيقِ

ولكن أزِيرُ لهم ساميًا
كما زَار لَيْثٌ بِغيلٍ مَضيقِ

هذا، وبكل اعتزاز وكبرياء يشير أبو طالب ـ ساخِرًا مُستهينًا ـ إلى أن قريشًا لم تستسْلم لهذه الفئة ـ التي ثابت إلى رشدها، وأضاء الحقُّ نفوسَها، فهبُّوا لنقض هذه الصحيفة ـ ولم تتراجع قريش عما سوّلت لهم أنفسهم إلا بعد ما رَأوْا في النبيّ ـ ﷺ ـ تلك الخوارقَ المُبْهِرَة، وسمعوا تلك الأحاديثَ التي تُثيرُ العَجَب، وتُزيلُ الرِّيَب؛ وشاهدوا الأَحْبارَ ـ في كل مدينة ـ سُجَّدًا له؛ بعد أن أرادوا به كيْدًا في باديء أمرهم؛ فأقصاهم بَحيرَا الراهب عما كانوا يشتهون منه؛ وأكّد لهم أنه هو النبيّ المُرْسلُ الذي بَشَّرتْ به كُتُبُهم من قبل ـ يشير أبو طالب إلى ذلك في قوله[1] (الطويل):

فما رَجَعوا حتّى رَأوْا من محّمدٍ
أحاديثَ تَجْلُوهَمَّ كُلِّ فُؤادِ

وحتى رأوْا أحْبارَ كلِّ مدِينةٍ
سُجودًا له من عُصْبَةٍ وفُرادِ

زَريرًا وتمَّامًا وقد كان شاهدًا
دَرِيسٌ وهَمُّوا كلُّهمْ بفسادِ

فقال لهم قولاً بَحيرا وأيْقَنوا
له بعدَ تكْذيبٍ وطُولِ بِعادِ

١- (الديوان/ ٣٧ـ ٣٨) والقصيدة في سبعة أبيات.

كما قـال للـرَّهـط الـذيـن تـهـوَّدُوا

وجـاهَـدهـم ﴿ اللّه كُـلَّ جِـهـادِ

فقال ولم يـتْرُكْ لـه النُّصْحُ رِدَّةً

فـإنّ لـه إرْصـادَ كـلِّ مَـصـادِ

فـإنيّ أخـافُ الحـاسـديـنَ وإنـه

لـفـي الـكُـتْـبِ مـكـتـوبٌ بـكـلِّ مِـدادِ

هذا، والشكر على الآلاء من محاسن الأخلاق، ومكارم الأصفياء، وشيم الأوفياء؛ ومَنْ أجْدرُ بهذه الصفاتِ من أبي طالب عمِّ رسول اللّه ـ ﷺ ـ وحبيبه؛ فها هوذا يتوجه بشعوره وشعره إلى هؤلاء الرّهط الذين «اتّعدوا خَطْم الحجون ليلاً بأعلى مكةَ، فاجتمعوا هنالك»[1]، وأبرْموا أمرهم ـ والناس نيامٌ ـ على نقض تلك الصحيفة القاطعة الجائرة؛ يتوجّه إليهم، حامدًا إياهم، مُطْرِيًا لهم، داعيًا اللّه ـ عزّ وجل ـ أن يُسبغ عليهم نِعَمه، وأن يعمَّهم بخيره، وأن يجزل لهم عطاءه؛ وِفاق ما جمعوا من الخير، وما قدّموا من صنيع في حياتهم؛ مشيرًا إلى أنه لا غرابة في فَعالهم؛ فهم سادةٌ، عظماءُ؛ غُرٌّ مشاهيرُ؛ لهم أثرُهم وسطوتُهم التي تُقيِّم (الأبْلح) المُتْعب، وتُطَبِّب (المجرم) المُذْنب؛ مُعَجِّبًا ومُعظِّمًا مجلسهم في مكةَ عند الحجون ليلا، وكأنهم –في ثباتهم، وثقتهم بأنفسهم، وتملّكهم لقضائهم، ونفاذ أمرهم– مقاويلُ اليمن وملوكُها؛ بل هم أعزُّ منهم شأنًا، وأعظمُ قدْرًا؛ وحسبهم فضلاً وشرفًا أنهم بما صنعوا يحيطون بنبيٍّ يدعو إلى الحق، ويسْتعْصم بالحق، وأنه يرشدهم إلى ما فيه خيرٌ لهم في دُنياهم وأُخْراهم.

ثم يُبْدي في القصيدة أسفه أنه مع حَدَبِه عليه ـ ﷺ ـ ، واعترافه بأن

---

١– على حدّ تعبير ابن إسحاق في (السيرة : ١/٣٧٦) «والحجون: موضع بأعلى مكة. وخطمه: مقدمه» على ما أشرنا من قبل.

ما جاء به هو الحق من عند ربه؛ ومع تذكُّرِهِ وصيّةَ جدِّهم قُصيّ بن كلاب في الانتهاء عما نحن فيه، والازورار عما يُورثُ الْحُوبَ، ويَجْلِبُ الذنوب، وحرصه على هذه الوصيّة ـ مع هذا كله لم يصطبغ بصبغته؛ لِتَعِلَّةٍ قبليّة وأُسَرِيَّة.

وأخيرًا يُطلق أنغام شعره مفتخرًا بقومه ـ وهو منهم ـ عظمةِ قدرِهم؛ ورفعةِ شأنِهم، وعَراقةِ أصلهم، وطِيبِ محتدِهم، وتفرُّدِهم بالقيادة، واستئثارِهم بالحكم، ووَلَعِهم بالجود والسخاء، وشهرتِهم بإجارة المستغيثين، وحمايةِ الضعفاء، وإطعامِ الجَوْعَى؛ وبخاصة في السنوات العجاف؛ على ما صنع جدّه هاشم بن عبد مناف.

وفي نهاية القصيدة يفتخر بنفسه حيث رفعه أبوه (شيبةُ) عبد المطلب بن هاشم مكانًا عليًّا، وأورثهُ مجدًا سامِقًا مُشْرقًا، حين أوصاه بكفالة النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده، دون إخوته، «وقال له: قد خلفتُ في أيديكم الشرفَ العظيمَ الذي تطئون به رِقابَ العرب»[1].

يقول أبو طالب[2] (المتقارب):

سقى اللّهُ رَهْطًا هُمُ بالحُجون
قِيامٌ وقد هَجَعَ النُّوَّمُ

قضَوْا ما قَضَوْا في دُجى لَيْلِهِمْ
ومُسْتَوْسِنُ الناسِ لا يعلمُ

---

١- (تاريخ اليعقوبي: ١٣/٢).

٢- (الديوان/ ٨١ ـ ٨٢) والقصيدة في خمسة عشر بيتًا: (المستوسن). النائم. (بهاليل): جمع البهلول وهو السيد الجامع لكل خير. (غرّ لهم سورة) سادة القوم لهم سطوتهم. (الأبلح): المتعب العاجز (نثاسُبّة) ما يخبر عن الرجل من سوء. (الخطر الأعظم): القدر العظيم. (الراسبون): الثابتون (أزم السنين) شدائدها. (القتار): دخان الطعام المطبوخ، أو رائحته.

بَهاليلُ غُرٌّ لهم سَورةٌ
يُداوَى بها الأبْلَحُ المُجْرِمُ

كَشِبْهِ المقاولِ عند الحَجو
نِ بل هُمْ أعَزُّ وهُمْ أعْظمُ

لدي رجُلٍ مُرْشدٍ، أمرُه
إلى الحقِّ يدعو ويَسْتعْصِمُ

فلولا حِذاري نَثا سُبَّةٍ
يَشيدُ بها الحاسِدُ المُفْعَمُ

ورَهْبةَ عارٍ على أُسْرتي
إذا ما أتى أرْضَنا الموْسِمُ

لتَابَعْتُهُ غيرَ ذي مِرْيةٍ
ولو سِيءَ ذو الرأْيِ والمحْرَمُ

كقول قُصَيٍّ، ألا أقْصروا
ولا تركبوا ما به المَأثمُ

فإنا بمكّةَ قِدْمًا لنا
بها العزُّ والخَطَرُ الأَعْظَمُ

ومن يَكُ فيها له عِزَّةٌ
حَديثًا فعزَّتُنا الأقْدَمُ

ونحن ببطحائها الرَّاسِبو
نَ والقائدون ومَنْ يحْكُمُ

نـشـأنـا وكـنّـا قَـلـيـلاً بها
نُجــيرُ وكُــنّــا بـهـا نُـطْـعِـمُ

إذا عَضَّ أزْمُ السّنين الأنـامَ
وحَـــبَّ الـقُـتـارَ بـهـا المُـعْــدِمُ

نَمـانِيَ شَـيْـبَـةُ سـاقـي الحجيج
ومَجْـــدٌ مُـنـيـفُ الــذُّرى مُـعْـلَـمُ

هذا، وقد أَبى أبو طالب إلا أن يَنْشُرَ بهْجته على الذين خاضوا البحر هجرةً إلى الحبشة؛ ويزُفَّ إليهم ـ على نأيهم ـ صُنعَ ربِّهم ببني هاشم ورحمته بهم؛ ويُنبئَهم بتمزيق تلك الصحيفة التي نُقِشت بالإثم والعدوان، ورُقِشت بالكذب والسحر والبهتان؛ فكان مآلها التّلف والخسران، «وخِسر هنالك المبطلون».

ثم يسخر من الذين تداعَوْا لها أذلاّء صاغرين، فكانت وَباءً لهم وشؤمًا عليهم؛ مشيرًا إلى أنهم ـ بعملهم وإثمهم ـ كانوا يُؤَرِّثون حربًا شعواء، تُقطّعُ فيها الأيدي، وتُفَصل الأعناق؛ مما يدفع سُكّان مكةَ ـ بطاحها وظواهرها ـ إلى هجرها فَزِعين من شرها، لا يدرون أيَّ وِجْهة تُنجيهم منها، أَنَجْدًا يقصدون، أم تهامة يرحلون؛ تُطارِدُهم ـ بين الأَخْشَبَيْن ـ (جَبليْن بمكّةَ) كتيبةٌ مُدجّجةٌ بالرماح والسيوف التي تقطر دَمًا ـ بَيْدَ أن الله قد أفسد خطَطَهمْ، وخَيّب آمالهم؛ حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

فيقول أبو طالب مشيرا إلى هذه المعاني في قصيدته[1] (الطويل):

---

١- (الديوان/ ٣٣: ٣٥) وهي تحتوي على ستّة وعشرين بيتا.

هذا، و«أرود: أرفق. تراوحها: تعاقب عليها. تداعى لها: دعا بعضهم بعضا.

القرقر: الذليل. طائرها: شؤمها. وكانت كفاءً: مجازاة بالمثل. بأثيمة: اعتياد الوقوع في الإثم. المقلّد: العنق. الحراث: المكتسب. الحدج: الحمل.

المرهد: الناعم واللين من الرماح والسيوف لارتوائه بالدماء».

ألا هل أتيـىَ بَحْريِّنا صُنعُ ربِّنا
على نَـأْيِـهـمْ ، والله بالناس أَرْوَدُ؟
فَيُخْبرَهم أن الصّحيفةَ مُزِّقتْ
وأن كُـلَّ مـا لم يـرْضَـهُ اللهُ مُفْسَدُ
تَـراوَحَـهـا إفْــكٌ وسـحـرٌ مُجمَّعٌ
ولم يُلْفَ سحرٌ آخـرَ الدهـرِ يَصْعدُ
تداعى لها من ليس فيها بِقَرْقَرٍ
فـطـائِـرُهـا في رأســهـا يــتردَّدُ
وكــانــتْ كِـفـاءً وقْـعـةٌ بـأثـيـمـة
لِـيُـقْـطَـعَ مـنـهـا سـاعِـدٌ ومُـقَـلَّـدُ
ويـظْـعـنَ أهــلُ المـكَّـتـيْن فيْهرَبوا
فَرائِصهُمْ من خشْية الشَّرِّ تُرْعَدُ
ويُـــتْرَكَ حـــرَّاثٌ يُـقـلِّـبُ أمــرَهُ
أَيُـتْـهِـمُ فـيـهـا عـنـد ذاك ويُـنْـجِـدُ؟
وتـصْـعَـد بـين الأخْـشَـبـيْن كتيبةٌ
لـهـا حَـــدَجٌ سـهـمٌ وقـوسٌ ومِـرْهَـدُ

ثم يُوازن أبو طالب ـ مزْهُوًّا ـ في القصيدة نفسها بين عِزّهم التّليد ومجدهم العريق، وعِزِّ حُضّارِ مكةَ الناشىء الطّريف؛ مستشهدا على ذلك ومؤكدًا له بِقِدَم نشأتهم ـ والناس قليلٌ ـ فيها؛ ونُموّ خَيْرهم، واستمرارِ فضْلهم، وسخائِهم في إطعام الطعام مع بُخل غيرهم وشحه؛ فيقول:

فمن يَنْشَ من حُضَّار مكّةَ عِزُّهُ

فَعِزَّتُنا في بطن مكةَ أَتْلَدُ

نشأنا بها والناسُ فيها قلائلٌ

فلم نَنْفَكِكْ نزدادُ خِيرًا ونُحمدُ

ونُطْعِمُ حتى يتْركَ الناسُ فضْلَهمْ

إذا جُعَلِتْ أيْدي المُفيضينَ تُرْعَدُ

ثم يجعل من قصيدته الحظَّ الأوْفى لمدح هذا الرّهطِ الذين مزّقوا الصحيفة شَرَّ مُمّزق؛ مُطْريًا فيهم: جُرْأتَهم، وثَباتَهم، وثقتَهم بأنفسهم ونفاذَ قرارهم كأنهم مقاويلُ اليمن في ملكهم؛ (بل هُمْ أعزُّ وأمْجد) .

كما يُعظِّم فيهم أيضا يقظتَهم وسُرْعَتهم في إنجْاز خُطَّتهم، وشدَّةَ إبائهم وغَيْرتَهم، وسخاءهم، وطيبَ محْتدهم وحرصهم على بناء الخير لقومهم، وتشييد الصالحِ لعشيرتهم؛ مُعَجِّبًا من طول قامتهم ووضاءتهم التي يُستسقى الغمامَ بها، ويؤتى السعد من ورائها؛ مُتَوِّجًا تقديره لهم بالإشارة إلى إمارتهم وسيادتهم في قومهم، وكأنّ هذه الفضائلَ كلَّها ـ في خَلَد الشاعر ووِجْدانه ـ هي التي دفعت هذا الرّهط إلى صنع ما صنعوا بثقة وطُمأنينة، فتمّ الخير على أيديهم، وأرْضَوْا بهذا العمل الرفيع هذا الصحابيَّ الجليلَ سهلَ بنَ وهب بن ربيعةَ (الذي نُسب إلى أمه بيضاء) ذاك الذي أنكر الصحيفة، وسعى إليهم في نقضها[1]؛ لِتوسّمه الخير والغَيْرَة فيهم ، فكان له ما سعد به ورضي عنه؛ كما سُرَّ بصنيعهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وصاحبُه

١- عن الحاشية/ ٢٢ من ص ٣٥ من الديوان. وانظر المزيد عن هذا الصحابيّ في (أنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ ـ ٢٢٥)، و(جمهرة أنساب العرب/ ١٧٧).

أبو بكر الصديق، رضي الله عنه؛ يقول[١] أبو طالب رامزًا إلى ما سبق:

جَزي اللهُ رَهْطًا بالحَجون تتابعوا
على مـلأٍ يـهـدي لحـزمٍ ويُـرْشِـدُ
قعودًا لدى خَطْمِ الحجُون كأنهم
مَـقـاوِلـةٌ بـل هـم أعـزُّ وأمْجَـدُ
أعـان عليها كـلُّ صـقْـرٍ كأنـه
إذا ما مشى في رَفْـرفِ الـدِّرعِ أجْرَدُ
جَـريءٌ على جُلَّـي الخطـوبِ كأنه
شِـهـابٌ بـكـفَّـيْ قـابـسٍ يـتـوقّـدُ
من الأكرمين في لُـؤَيِّ بن غالبٍ
إذا سِـيـمَ خَـسْـفًا وَجْـهُـهُ يـتَرَبَّدُ
طويلُ النِّجادِ خارجٌ نِصفُ ساقه
على وجْهِهِ يُسْقَى الغمامُ ويُسْعَدُ
عظيمُ الـرَّمادِ سيِّدٌ وابـنُ سيِّدٍ
يَحِضُّ على مَقْرَى الضيوف ويُحْشَدُ
ويبني لأبناء العشيرةِ صالحًا
إذا نحن طُفْنا في البلاد ويُمْهِدُ
أَلَـظَّ بـهـذا الصلحِ كُـلُّ مُـبرَّأٍ
عظِيمُ اللـواءِ أمـرُهُ ثَـمَّ يُحْـمَدُ

---

١- ومما ورد في قوله هنا: «رفرف الدرع: ما فضل منه. أجرد: بلا سلاح. ألظّ: ألحّ ولزم. عظيم اللواء: كناية عن إمْرته وسيادته في قومه: ثَمَّ يُحمد: هنالك يحمد».

قَضَوْا مـا قَضَـوْا في ليلهم ثم أصبحوا
على مَهَـلٍ وسـائرُ النـاسِ رُقَّدُ

هُـمُ رَجَعـوا سَهْـلَ ابنَ بيْضـاءَ راضيًا
وسُـرَّ أبـو بكـرٍ بهـا ومحمَّـدُ

ومع اعتزاز أبي طالب بهذا الرهط، وشكره لهم، وحمدِه إياهم - يعود إلى قومه معتزًّا بسياستهم وقدرتهم على حل مشاكلهم، وتفردهم في معالجة الجليل من أمرهم؛ مشيدا بفضلهم، وتسابق الناس قديما إلى إرضائهم وودِّهم؛ فخورًا بقوتهم في دَرْء الضّيْم عنهم، وحِكْمتهم في تحقيق مآربهم دون قسوة أو تشدّد منهم. وكأنه يريد بذلك دفع العجز عنهم، وبيان أن هذه هي المرة الوحيدة التي أسهم هؤلاء الرهط الطيب الغيور في فَضّ نزاعهم وحل مشاكلهم مع جبابرة قريش الذين لم ينصاعوا للحق - مع صَحْصَحتَه - لضلالهم وحسدهم لنا وحِقْدهم علينا بما فضّلنا الله به. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

يعود أبو طالب مشيرًا إلى ذلك في قوله:

متى شُرِكَ الأقـوامُ في جِلِّ أمرِنا
وكُـنّـا قـديمًـا قبـلـهـا نـتـودَّدُ؟

وكُـنـا قـديمـا لا نُـقِـرُّ ظُـلامـةً
ونُـدْرِك مـا شـئنـا ولا نـتشـدّدُ

وهاهوذا في نهاية القصيدة يحضُّ آل قُصيّ على الحفاظ على أرواحهم وأنفسهم، كما يحثهم على اتباع رسول الله - ﷺ - إبقاءً لغدهم وادّخارًا لآخرتهم؛ تاركًا الإجابةَ لهم والأمرَ إليهم، وحسبه نصحه لهم، وحرصه عليهم، في قوله:

فيالَقُصَيٍّ هل لكمْ في نفوسكم
وهـل لـكُـمُ فيـما يـجـيءُ بـه الـغَـدُ

فــإنيّ وإيّــاكــمْ كمـا قــال قائل:
(لَـدَيْـكَ البيانُ لو تكلَّمتَ أسودُ) [1]

١- جاء في الحاشية رقم / ٢٦ من ص/٣٥ من الديوان؛ قول جامعه: «العجز مثل مشهور، وأسود اسم جبل قتل فيه رجلٌ، فقال أهله هذا القول؛ أي لو تكلمت لأخبرتنا عن القاتل».

## المبحث الرابع عشر

### بهجةُ الإفراج اجتثّها عام الحزن في حياة الرسول - ﷺ - .

هذا، وقد شاء الله - عزّ وجلَّ - أن تكون السنة العاشرة من البعثة النبوية - قبل الهجرة بثلاث سنوات - وهي السنة التي تم فيها خروج بني هاشم وبني المطلب من الشِّعْب؛ أن تكون سنة حُزن لرسول الله - ﷺ - وكيف لا؟ وقد فقد في هذه السنة زوجه خديجة بنت خويلد، وعمه أبا طالب الذي توفّي في (شوال أو في ذي القعدة، وعمره بضع وثمانون سنة)[1]؛ فعظمت المصيبة عليه؛ بل تتابعت عليه المصائب بعد موتهما، فقد كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - للرسول «وزِيرَ صِدْقٍ على الإسلام، يشكو إليها»، وكان عمّه أبو طالب «له عَضُدًا وحِرْزًا في أَمره، ومَنَعَةً وناصرًا على قومه... فلما هلك... نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سُفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا»[2].

صلى الله عليك يا رسول الله وجزاك الخير - كل الخير - عن الإسلام والمسلمين. وإلى الله أمر أبي طالب، فهو في ذمته، والله فاعل به ما يشاء سبحانه وتعالى. لكن التاريخ يظل يشهد بمواقفه البطولية، وحرصه الشديد على حماية النبي الكريم مهما تكبد من قومه، ومهما أصابه من محن وأهوال.

والحمد لله على ما أعان وله الشكر على ما وفّق،،

---

١- (الكامل في التاريخ : ٩٠/٢) وانظر كذلك (حياة الصحابة / ٢٤٤).

٢- (السيرة النبوية: ٤١٦/١). وانظر في هذه النهاية وذاك المصير: (تاريخ الطبري: ٣٤٣/٢ - ٣٤٤)، و(مروج الذهب: ٢٩٤/٢)، و(الكامل في التاريخ : ٩٠/٢ - ٩١) ، و(البداية والنهاية: ٩٨/٣)، و(وخزانة الأدب للبغدادي: ٧٦/٢) وغيرها.

## لائحة المصادر والمراجع


ـ (الأعلامُ) (قاموس تراجم) لخير الدين الزّركلي ـ الطبعة السادسة ـ دار العلم للملايين / ١٩٨٤م.

ـ (أنساب الأشراف) لأحمد بن يحيي المعروف بالبلاذُرِي المتوفى سنة ٢٧٩هـ، تحقيق د/محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر ـ سنة ١٩٥٩م.

ـ (البدايةُ والنهاية)، لأبي الفداء الحافظ ابن كَثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ. الطبعة الأولى ـ مكتبة المعارف/ بيروت ، مكتبة النصر/الرياض ـ سنة ١٩٦٦م.

ـ (تاريخ الطبري؛ تاريخ الرسل والملوك) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ المتوفى سنة ٣١٠هـ ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بمصر ـ سنة ١٩٧٧م..

ـ (تاريخ اليعقوبيّ) لأبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ـ دار صادر بيروت.

ـ (الجامعُ اللطيف في فضل مكةَ وأهلها وبناء البيت الشريف)؛ لابن ظهيرة القرشيّ المحزوميّ. الطبعة الأولى ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه/ القاهرة: ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢١م.

ـ (جمهرةُ أنساب العرب)؛ لأبي محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسيّ، المتوفّى سنة ٤٥٦هـ. الطبعة الرابعة ـ دار المعارف القاهرة ـ ١٩٧٧م.

ـ (حياةُ الصحابة)، لمحمد يوسف الكاندْهلوي. دار المعرفة للطباعة والنشر/بيروت ـ لبنان.

ـ (حياة محمد ﷺ) د/ محمد حسين هيكل. الطبعة الخامسة والعشرون، دار المعارف بمصر ـ ٢٠٠٩.

ـ (خِزانةُ الأدب ولُبُّ لُباب لسان العرب) تأليف عبد القادر بن عمر البغداديّ، المتوفى سنة ١٠٩٣هـ. تحقيق وشرح/ عبد السلام محمد هارون

ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة/ ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.

ـ (ديوانُ أبي طالب عمِّ النبي ـ ﷺ ـ) جمعه وشرحه الدكتور/ محمد التّونجي. الطبعة الثالثة ـ دار الكتاب العربي / بيروت ـ ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

ـ ( ديوانُ شيخ الأباطح أبي طالب) جمع أبي هفّان عبد الله بن أحمد المهزميّ العبديّ ـ رواية عفيف بن أسعد عن عثمانَ بن جنيّ النحويّ مشروحا ـ صححه وعلّق عليه العلامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم من نشريات المكتبة المُرْتضويّة ومطبعتها الحيْدريّة في النجف ـ العراق سنة ١٣٥٦هـ.

ـ (زهرةُ الأُدباء في شرح لاميّة شيخ البطحاء أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم) تأليف جعفر نقدي ـ المطبعة الحيْدريّة في النجف الأشرف سنة ١٣٥٦هـ.

ـ (سبائكُ الذَّهب في معرفة قبائل العرب) لأبي الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسّوَيْدي ـ وضع حواشيه كامل مصطفى الهنداوي ـ الطبعة الثالثة ـ منشورات محمد على بيْضون، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ٢٠٠٧م = ١٤٢٨م.

ـ (سير أعلام النّبلاء) للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبيّ، المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م ـ جـ٢، حقق نصوصه / شُعيْب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ـ (السيرةُ النّبويّة) لابن هشام. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. دار إحياء التراث العربي بيروت.

ـ (شعرُ زُهيرٌ بن أبي سلمى) صنعة الأعلم الشّنتمري. تحقيق دكتور/ فخر الدين قباوة. الطبعة الثالثة ـ منشورات دار الآفاق الجديدة / بيروت، سنة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

- (طبقاتُ فحولِ الشعراء) تأليف محمد بن سلام الجُمحيّ، المتوفى سنة ٢٣١هـ. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة.

- (الطبقاتُ الكبري)؛ لابن سعد: دار صادر، دار بيروت ببيروت/ ١٣٨٠هـ= ١٩٦٠م.

- (العِقْدُ الثمين في تاريخ البلد الأمين) للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسنيّ الفاسيّ المكيّ، المتوفى سنة ٨٣٢هـ. تحقيق محمد حامد الفقي. الطبعة الثانية - مؤسسة الرسالة / بيروت سنة : ١٣٥٦هـ = ١٩٨٦م.

- (فجرُ الإسلام) تأليف أحمد أمين. الطبعة الثانية عشرة - مطبعة النهضة المصرية - سنة ١٩٧٨م.

- (الكاملُ في التاريخ) تأليف الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد، المعروف بابن الأثير. دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- (كتاب الإصابة في تمييز الصحابة)، للحافظ ابن حجر، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، المطبعة الشرفية ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

- (كتابُ العِقْد الفريد)؛ لابن عبدربّه الأندلسيّ. شرحه/ أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٦م.

- (لسانُ العرب) لابن منظور جمال الدين محمد بن مُكرَّم الأنصاريّ، المتوفى سنة ٧١١هـ.

- (مجمع الأمثال) للميدانيّ؛ أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، النيسابوريّ المتوفى سنة ٥١٨هـ. حققه/محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة: ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

- (مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد) للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ، الطبعة الثالثة - دار الكتاب العربي بيروت/ لبنان - ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ـ (المُحَبَّرُ) ؛ لأبي جعفر محمد بن حبيب البغداديّ، المتوفى سنة ٢٤٥هـ (رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السّكري) اعتني بتصحيحه: د/إيلزه ليختن شتيتر ـ (مصورة عن طبعة دار المعارف العثمانية سنة ١٣٦١هـ) ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

ـ (مروجُ الذّهب ومعادنُ الجوهر)؛ لأبي الحسن على بن الحسن بن على المسعوديّ المتوفى في عام ٣٤٦هـ. تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة الإسلامية (بيروت).

ـ (المعارفُ) لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م. حققه وقدّم له: د/ثروت عكاشة. الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١م.

ـ (المُنَمَّقُ في أخبار قريش)؛ لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥هـ. صححه وعلّق عليه: خورشيد أحمد فاروق ـ الطبعة الأولى ـ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

ـ (نشوةُ الطَّرب في تاريخ جاهليّة العرب) لابن سعيد الأندلسيّ، المتوفى سنة ٦٨٥هـ. تحقيق: د/نصرت عبد الرحمن ـ مكتبة الأقصى ـ عمان ـ الأردن.

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير( رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة ( مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر( أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار( ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ــــــــــــــــــــــــــــــ

د. محمد إقبال عروي ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم ( ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

نهـر متعـدد.. متجـدد

## هـذا الكتـاب

والحق أن شعر أبى طالب كثيرٌ، وجُلُّه يُعبِّر عن تجربة بعينها؛ ويدور حول قضية واحدة؛ هي (نُصرةُ الرسول ﷺ. وحمايتُه). ومع تعدّد أغراضه التي يتآزر بعضها مع بعض في الدفاع عن هذه القضية وتحقيقها في ديوان أبى طالب؛ فإنني قد التزمت بعرض هذه الأشعار حسب الأحداث التاريخية التي لابدّ من استدعائها وتوظيفها لبيان البيئة الخاصة لكل نصّ من جهة؛ ولتوضيح المعاني لما يقول أبو طالب ، قصيدة كانت أو مقطّعة، من جهة أخرى.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa